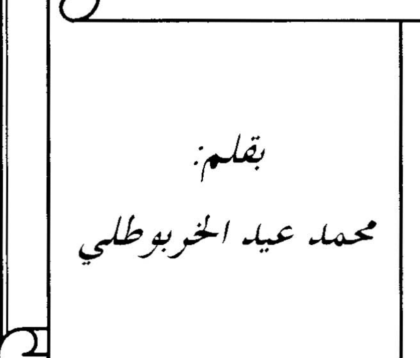
رثاء البلدان في الشعر العربي



مقدمة:

الرثاء من الموضوعات البارزة في شعرنا، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة، وهو بكاء يتعمق في القدم منذ وُجِدَ الإنسان، ووُجِدَ أمامه هذا المصير المحزن، مصير الموت والفناء الذي لابد أن يصير إليه، فيصبح أثراً بعد عين، وكأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

لكل أمة مراثيها، والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي، وهي تأخذ عندها ألواناً ثلاثة، الندب والتأبين والعزاء، أما الندب فبكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت، فيئن الشاعر ويتفجع، إذ يشعر بلطمة مروعة تصوَّب إلى قلبه، فقد أصابه القدر في ابنه أو في أبيه أو في أخيه، وهو يترنح من هول الإصابة ترنح الذبيح، فيبكي بالدمع الغزار، وينظم الأشعار يبث فيها لوعة قلبه وحرقته، فيبكي ويلحن بكاءه على قيثارة شعره تلحيناً مشجياً كله آلام ومسرات.

والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب، بل يندب أيضاً من ينزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم، ويرثي أيضا البلدان والأوطان حين تسقط مهيضة الجناح في يد الأعداء، فينوح عليها الشعراء مصورين محنتها الكبرى وكارثتها العظمى.

وليس التأبين نواحاً ولا نشيجا على هذا النحو، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، إذ يخر نجم لامع من سماء المجتمع، فيشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية، وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه، ومن هنا كان التأبين ضربا من التعاطف والتعاون الاجتماعي، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها.

والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين، إذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة، وقد ينتهي بهذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة، فإذا بنا نجوب معه في فلسفةً الوجود والعدم والخلود.

الرثاء عند الأمم:

عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى، كما كانوا يقضون على قبورهم مؤبِّنين لهم مُثنين على خصالهم، ولا نرتاب في أن الرثاء بدأ عند العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصورة تشبه أن يكون سحرا حتى يطمئن الميت في مرقده، وقد يكون من أقدم صور الرثاء عند العرب ما نُقش على قبور الأقيال والأذواء في اليمن والأمراء في الحيرة وعند الغساسنة في الشام، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليداً لذكراهم وتمجيداً لأعمالهم.

والرثاء يقترن بالموت، وليس في العالم أمة لم تعرف الرثاء كما أنه ليس فيه أمة لم تعرف الموت، فالرثاء وُجد عند كل الأمم والشعوب بادية وراقية متحضرة، ففي الأدب الفرعوني القديم نجد صوراً مبثوثة، تارة منفصلة وتارة متصلة ببعض القصص كقصة الآلهة (أوزيريس وسيت وإيزيس)، ومن يقرأ في التوراة يرى ألواناً مختلفة من الرثاء، فتارة يجد بكاءً وندباً، وتارة يجد نحيباً ونواحاً، كذلك نرى الرثاء في الشعر اليوناني له مكان بارز، وقد اشتهر به شعراء مختلفون مثل (أرخلوكوس وسافو وسيمونيدس)، ومعروف أن الأدب الغربي الحديث احتذى الأمثلة اليونانية والرومانية، ومن هنا شاع فيه الرثاء على نحو ما شاع عند اليونان والرومان، ففي الشعر الإنكليزي نجد (تشوس) أبا هذا الشعر ينظم قصيدته الطويلة في زوجة (الدوق لانكستر) وسماها (كتاب الدوقة) ومازال الشعراء الإنكليز ينظمون مراثي مختلفة حتى بذَّهم ملتن بمرثيته لسيداس، وفيها يرثي رفيقه في الجامعة بعد أن غرق في البحر، وهناك الشاعر (لادونس لشلي)، وقد اشتهر برثائه للشاعر كيتس الذي مات شاباً، كذلك رثى الشاعر (توماس جراي) الطبقة الكادحة في الريف، وشعراء الأدب الفارسي احتذوا الرثاء في الشعر العربي، خاصة في رثائهم لآل البيت، فجاؤوا بالروائع التي لا تحصى، كذلك يلتقي معهم شعراء الأدب التركي، وقد عرف منهم الشاعر عبد الحق حامد، فله ديوان (مقبر) الذي يرثي فيه زوجته.

مما تقدم نكاد نجزم أنه لا توجد أمة مهما أوغلت في البداوة أو صعدت في مراقي الحضارة إلا وهي تبكي موتاها بكاء يصور حزن الإنسان على أخيه.

رثاء البلدان:

مع تطور أنظمة الحكم عند العرب وارتقائها، ووجود حواجز بين الحكام من جهة والرعية من جهة أخرى، وما تلا ذلك من فتن وثورات أدَّت إلى كوارث وحروب داخلية ذهب قتلى كثيرون ضحاياها، كثر الرثاء السياسي من ناحية، ورثاء المدن والبلدان من ناحية أخرى.

ففي الرثاء السياسي يظهر تكلّف الحزن، واصطناع الأسى واضحاً، إن لم تكن صلة الراثي بالمرثي قوية، وعلى العكس من ذلك فإن كانت الرابطة قوية، اضطَّر الراثي إلى إخفاء كثير من مشاعره تجاه الوالي الراحل، خشية إثارة حفيظة من يخلفه في الحكم، وهذا تماماً ما حدث مع البحتري عندما قُتل صديقه الخليفة المتوكل العباسي، واتهم وقتها ابنه المنتصر الذي استلم الحكم بعده بتدبير مقتل

أبيه، فرحل البحتري ونفس عن مصابه بصديقه بقصيدته السينية في وصف إيوان كسرى، ومع ذلك فقد نفس عما بداخله في قصيدة أخرى.

ولعلّ رثاء المدن والديار يُعدُّ امتداداً للرثاء السياسي أو هو نتيجة من نتائج الحروب السياسية، سواء كانت داخلية أم خارجية.

وهناك قصائد كثيرة رثى بها أصحابها كثيراً من الدول الزائلة وبكوها وندبوها، كما فعلوا ذلك بالبلدان حين نزلت بها الحوادث القاصمة، أو استعمرتها بعض الدول الغاصبة. ومن البلدان العربية والإسلامية التي رُثيت:

١ - بغداد:

يقول أحد الشعراء واصفاً ما حلَّ ببغداد من خراب ودمار، إثر الخلاف الذي جرى بين الأخوين الأمين والمأمون، والذي أذكت الشعوبيّة الحاقدة ناره وأضرمت أواره.

من ذا أصابك يا بغدادَ بالعين
ألم تكوني زماناً قُرّة العين؟
أستودعُ الله قوماً ما ذكرتُهُمُ
إلا تحدّرَ ماءُ العينِ من عيني
صاح الغرابُ بهم بالبين فافترقوا
ماذا لقيت بهم من لوعةِ البين؟

وهذه هي أول كارثة ساحقة حاقت ببغداد، ولعلها أول بلد في الشرق ينزل فيها ذلك، حيث حرقها ابن طاهر قائد المأمون وسلط عليها مجانيقه، فتحولت بغداد إلى نار أتت على كل شيء فيها، وصارت قصورها التي كانٍ يتغنى بها الشعراء خرابا وكأنها لم تكن شيئاً مذكورا، هذه الحادثة التي أتت على بغداد أثرت في قلوب كثير من الشعراء، فقال فيها بعضهم يرثيها ويبكيها:

بكت عيني على بغداد لّما
فقدتُ عصارةَ العيش الأنيقِ
أصابتْها من الحُسَّاد عينٌ
فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقومٌ أُحْرِقوا بالنار قَسْرا
ونائحةٌ تنوح على غريقِ
وصائحةٌ تنادي واصحابي
وقائلة تقول أيا شقيقي
ومغتربُ بعيدُ الدار مُلقى
بلا رأسٍ بقارعِ الطريق
ولا ولدٌ يعرج على أبيه
وقد هرب الصديق عن الصديق

وعندما دخل التتار بغداد وهدموها وأبادوا معالمها وقتلوا أهلها وأحرقوا مكتباتها وأزالوا معابدها، قال شاعر مبيناً ذلك:

لسائلِ الدمعِ عن بغدادَ أخبارُ
فما وقوفُك والفتيان قد ساروا
تاجُ الخلافة والرّبعُ الذي شَرُفتْ
به المعالمُ قد عفّاهُ إقْفارُ
أضحى لحيْفَ البلى في ربعه أثَرٌ
وللدّموع على الآثار آثارُ

٢ - البصرة:

البصرة مجمع البحرين الأجاج العذب بلد النخيل الباسقات بطلعها النضيد، البصرة نافذة العراق المُشرعة على نسائم الخليج العربي، وبندقية الشرق، ولؤلؤة الخليج، البصرة التي

قال فيها هارون الرشيد (نظرنا فإذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة).

البصرة القديمة كانت مكان مدينة الزبير الحالية، وتعد البصرة إحدى الولايات الإدارية الثلاث التي يضمها العراق (بغداد والموصل والبصرة).

البصرة التي عُرفت بعدة أسماء فقبل الإسلام عرفت باسم الخريبة وبعد بنائها سميت بأم العراق وخزانة العرب وعين الدنيا وذات الوشامين والبصرة العظمى والبصرة الزاهرة والفيحاء، كما عرفت في العهد الآرامي باسم (بصرياتا)، البصرة التي قيل إن فيها حوالي عشرين ألف نهر، هذا العدد الذي شكك فيه الجغرافي ابن حوقل لكنه عندما زارها أقرَّ بصحته.

إنها البصرة التي قال فيها الشاعر ابن أبي عيينة المهلبي يمدحها:

يا جنَّة فاقت الجنانَ، فما
يعدل لها قيمةٌ ولا ثمنُ
ألفيتها فاتخذتها وطناً
إنّ فؤادي لمثلها وطنُ

وقال متشوقاً إليها بعد ما فارقها إلى جرجان:

فإن أشكُ من ليلي بجرجان طوله
فقد كنت أشكو منه بالبصرة القصر
فيها نفسْ قد بدّلت بؤساً بنعمة
ويا عين قد بدلت من قرّة عِبر

إلى أن يقول:

فيا ندمي إذ ليس تُغني ندامتي
ويا حذري إذ ليس ينفعني الحذر

وقائلة: ماذا نبابك عنهم؟
فقلت: لها لا علم لي، فاسألي القدر

هذه البصرة تم حرقها كاملة أو أجزاء كبيرة منها عدة مرات في التاريخ، فقد تم حرقها من قبل الخوارج عند دخولهم إليها، وكذلك عند احتلال الزنج لها، وعند ثورتهم خرج أخو الخليفة العباسي للقضاء عليهم، وقبل أن يتم عمله حدثت ثورة أخرى في إيران، فاستقل قائد الزنج ذلك، فقويت شكيمته وزاد عدد جنده، فاقتحم البصرة، وحدث مجزرة وحشية قتل فيها من أهل البصرة ما يقرب من مليون شخص، وسبيت النساء، وبيع من بقي بيع العبيد، وأحرقت معظم أجزاء المدينة، إلى أن عاد أخو الخليفة وقاتلهم إلى أن قضى عليهم.

وقد رثى الشعراء البصرة كثيراً وبكوها بعد ذلك، وممن تأثر بذلك ابن الرومي، فنظم قصيدة طويلة في بكائها وأهلها ومما قاله فيها:

كم أغَضّوا من شارب بشراب
كم أغصّوا من طاعم بطعام
كم ضنينٍ بنفسه رام مَنْجى
فتلقوا جبينَه بالحسام
كم أخٍ قد رأى عزيز بنيه
وهو يُعْلى بصارم صمصام
كم رضيع هناك قد فطموه
بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاةٍ بخاتم الله بكْر
فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونةٍ قد سَبَوْها
بارزوا وَجْهُها بغير لثام

صبّحوهم فكابد القوم منهم
طول يوم كأنه ألف عامِ

ويستمر في قصيدته يصور حريق الزنوج لقصور البصرة، ويبكي رسومها وأطلالها ومسجدها، ويستنجد بالعرب والمسلمين لنصرة اخوتهم بالبصرة، ويدعوهم لينفروا خفافاً وثقالا حتى ينتقموا من الزنوج ومن وراءهم شر انتقام.

وممن رثى البصرة في فتنتها وإحراق الزنوج لها أبو ناظرة السّدوسيّ، وهو من أهل العلم والمعرفة بكلام العرب وحسن التصرف فيه كما وصفه المبرد في التعازي والمراثي، وقال فيه (رثى البصرة وأهلها بكلام عربي فصيح ينبئ أنه كلامُ موجَعٍ يخرج عن نية صادقة من ألفاظ رجل لا عَجز يقعد به بلوغ الحاجة، ولا إسراف في قوله وتمحّل يتجاوز به القدر)، وقد بلغت قصيدته سبعين بيتاً من البحر الطويل (وهكذا نجد معظم قصائد الرثاء من البحر الطويل) ومنها قوله:

مَنازِلنا هلْ منْ إيابٍ مُؤمَّلٍ
إليك، إذا ما آبَ كلُّ غريبِ!
وهلْ نحْنُ يوْماً عائدونَ ذوي غنىً
ومُنْتَجعٍ للمُعْتفينَ خصيبِ
أبى الصَّبْرَ تذْكارُ الدِّيارِ التي خلتْ
مجالسُها منْ سُوددَ وخطوبِ
منازلُ فارقنَ العُهودَ ولمْ تكنْ
معاناً لناقوس ولا لصليبِ
مَنازلُ قومٍ أسْرعَ السيفُ منْهمْ
إلى كُلِّ وضّاحِ الجبينِ نجيبِ
فأَوْدوْا وقدْ عاشوا كراماً أعفّةً
على فتنٍ مرّتْ بهمْ وحروبِ
تُغاديهمُ ضرباً على الهامِ تارةً
وذبْحاً بأقسى أنْفُسٍ وقلوبِ
فكمْ منْ رحىً دارتْ وكمْ منْ (مُصيبةٍ)
توالتْ ومنْ يومٍ هناكَ عصيبِ
على ألفِ ألْفٍ منْ مُلوكٍ وسوقةٍ
ثووْا بينَ أبْوابٍ لهمْ ودُروبِ
مُغلّقةٌ هاماتهمْ وشريدُهمْ
شماطيطُ شتّى أوْجُهٍ وسروبِ
إلى غيرِ راعٍ يُرتجى النّصرُ عنْدهُ
ولا عطنٍ يُؤْوى إليهِ رحيبِ
عباديدُ منْ ناجٍ على جِذْمِ بغْلةٍ
ومنْ رازحٍ يشكو الكلالَ جنيبِ
ومنْ راسبٍ طافٍ على الماءِ شِلْوُهُ
وذي ظمأٍ أودى بهِ وسغوبِ
فيا أرضَهمْ أخلوكِ فابْكي عليهمُ
وجودي عليهمْ يا سماءُ وصُوبي
فمنْ رامَ أنْ يبتاعَ منّا حديقةً
منَ النّخْلِ أعْطى درْهماً بجريبِ
فذو العِزِّ منّا مسْتكينٌ وذو الغنى
كأنْ لمْ يكنْ ذا رُتبةٍ وركوبِ
فما حلَّ بالإسلامِ مثلُ مصابنا
وسلْطاننا للدِّينِ حقُّ غصوبِ
يُقصِّرُ عنْ بغْدادَ كُلَّ فضيلةٍ
خُصصْنا بها إسْهابُ كُلِّ خطيبِ
رجالاً ومالاً يعرفُ النّاسُ فضْلهُ
على كُلِّ حالٍ رائحٍ وغريبِ
فلا المربَدُ المعمورُ بالعزِّ والنُّهى
وكُلِّ فتىً للمكْرُماتِ كسوبِ

بمرتجعٍ يوماً ولا المسْجدُ الّذي
إلْهِ تناهى علمُ كُلّ أديبِ
ولا قائمٌ الله إناءَ ليْلِهِ
بهِ كُلّ أوّاه إليْهِ مُنيبِ
ولا عائدٌ ذاكَ الحزينُ كعهْدِهِ
لكُلّ مُسنٍّ حوْلَهُ ومُهيبِ
ولا الشطُّ إذْ فيهِ لنا الخيرُ كُلُّهُ
وإذْ مُعْتفاهُ - الدّهْرَ - غيرُ جَديبِ
ودجْلةَ أحمى جانبيها كليْهما
كتائبُ زنجٍ كالطّنينِ دَبُوبِ

وقال فيها:

أَنُسْلَبُها غُلْباً ضوامنَ للقرى
على سنوات تعتري وجدوبِ
جداولها في كُلّ يومٍ وليلةٍ
ذواتُ جموم تحتها ونُضوبِ
وما النخلُ في اجلاها عنْ كواعبٍ
يُساقطْنَ في ديمومةٍ وشُيُوبِ؟
وما في خيامِ الزنْجِ منْ حرٍّ أوجهٍ
ذواتِ وسوم فيهمُ ونُدوبِ
ولا ذُو محاماةٍ ولا ذُو حفيظةٍ
ولكنْ رقيبٌ منْ وراءِ رقيبِ
على الثّمرِ المفجوعِ أربابُهُ بهِ
على خطرٍ من مُجْتناهُ عجيبِ
يقولونَ حُشْرى قسا منْ مُدافعٍ
لدى مَشْهَدٍ منّا ولا بمغيبِ؟
وقالوا تناسوْها فليسَ بعائدٍ
يتجاوَرُ أحْياءٍ بها وشعوبِ

وإنّي لأرجو أن ذاكَ منهمْ
وللدّهْرِ أيّامُ... وخطوبُ
نعتْ أرضنا الدّنْيا إلينا وأدْبرتْ
بكُلّ نعيمٍ في الحياةِ وطيبِ
وما كانتِ الدُّنيا سوى البلدِ الّذي
خلا اليومَ منْ داعٍ بهِ ومجيبِ
وما عيْشُ هذا النّاس بعدَ ذهابهِ
بعيْشٍ ولا مغْناهُمُ برغيبِ
إذا الدّمعُ لم يُسعدْ كئيباً فإنّني
سأبْكي وأُبْكي الدّهرَ كُلّ كئيبِ
وما كلُّ بصريٍّ شكا بمُفنّدِ
ولا كُلُّ بصْريٍّ بكى بمعيبِ
ولوْ أنّ بصريّاً بكى كُنْهَ شجْوهِ
بكى بدمٍ حتّى المماتِ صبيبِ
إذا أنتمُ غادرْتُموها كأنّها
منازلُ عادٍ غيرُ ذاتِ عريبِ
فلا ترفعوا الأبصارَ إلاّ كليلةً
إلى النّاسِ أوْ مُنْهَلّةً بغروبِ
فيا بصرُ كمْ منْ هالكٍ ماتَ حسرةً
عليكَ ومنْ صبٍّ إليكَ طروبِ
عليكَ سلامُ الله منّا فإنّنا
نرى العيشَ إلاّ فيكَ غيرَ حبيبِ

وكأن شاعرنا يرثيها ويبكيها في عصرنا هذا، فلو أنه عاش في زماننا لما رثاها بأكثر وأبلغ، فما قاله فيها من قبل، وبعد الذي حلّ فيها بعصر الديمقراطية الأمريكية لا يسعنا إلا أن نتذكر ابن البصرة وشاعرها بدر شاكر السياب صاحب أنشودة المطر الخالدة الذي يقول فيها:

عينــاك واحتــا نخيــل ســاعة الســحر
أو شُــرفتان لــيس ينــأى عنهمــا القمــر

٣- صقلية:

ومن البلاد التي رثاها وبكاهــا الشــعراء صقلية، حين سقطت في أيدي النورمان حوالي منتصف القرن الخامس للهجرة، فشاعرها ابن حمديس رثاها بعدة قصائد، ومما قاله:

أرى بلــدي قــد ســامه الــرومُ ذلــةً
وكــان بقــومي عــزّه متقاعســا
وكانــت بــلاد الكفــر تلــبس خوفــه
فأضــحى لــذاك الخــوف مــنهن لا بســا

٤- القيروان:

وقد هاجم البدو في نفس التاريخ تقريبــاً مدينة القيروان وخربوها، فبكاها شعراؤها كما بُكيت غيرها، ومن ذلك ما قاله ابن شرف:

آه للقيــــروان أنّـــــة شَــــجْوٍ
عــن فــؤاد بجــاحم الحــزن يَصْــلى
حــين عــادت بــه الــديار قبــوراً
بــل أقــول الــديار مــنهن أخْلــى
بعــد يــومٍ كأنمــا حُشِــر الخلْـــ
ـــقُ حُفــاةً بــه عــواري رُجْلــى
مُزِّقــوا فــي الــبلاد شــرقاً وغربــاً
يســكبون الــدموع هَطْــلا ووَبْــلا

٥- الأندلس:

في التاريخ الإسلامي لم يرث بلــد كمــا رُثيت الأندلس بمدنها وبلدانها، عنــدما أخــذ الاسبان الشماليون يستخلصــونها لأنفســهم، وأخذت تتساقط منذ عصر ملوك الطوائف فــي حجورهم كما تتساقط أوراق الخريف.

هناك ارتفع صــوت الشــعراء يحــذرون وينذرون ويستغيثون ويستنصرون ولكن ما من مجيب مثل ما يحصل في أيامنــا هــذه، فكــم مستصرخ استصرخ العرب والمســلمين فــي فلسطين والعراق فهل من مجيــب؟ اللهــم إلا الاستنكارات والبيانــات والإدانــات، التــي لا تسترجع شبراً واحداً مما فقد.

وكانت كلما ضاعت بلدة أو مدينــة فــي الأندلس ذرف الشعراء الدموع الحارة، ومــن أكثر البلدان التي أكثر الشــعراء مــن رثائهــا وندبها حين استولى الإسبان عليهــا (طليطلــة وبلنسية وشاطبة وقرطبة وجيّــان وإشــبيلية حمص الأندلس)، ومن أروع ما قيل بذلك قول أبي البقاء الرّندي المتوفى سنة ٦٨٤هــ بقصيدته تلك المدن المسلوبة وركــز علــى اشبيلية فقال:

لكُــلِّ شــيءٍ إذا مــا تمَّ نقصــان
فــلا يُغَــرَّ بطيــبِ العــيش إنســانْ
هــي الأمــورُ كمــا شــاهدْتها دولٌ
مــن ســرّهُ زمــنٌ ســاءتْهُ أزمــانْ
وأيــن الملــوك ذوُو التيجــان مــن يمن
وأيــن مــنهم أكاليــلٌ وتيجــانُ؟
وأيــن مــا شــادهُ شــدّادٌ فــي إرمٍ
وأيــن ماساســهُ فــي الفــرسِ ساســانُ؟
وأيــن مــا حــازهُ قــارونُ مــن ذهــب
وأيــن عــادٌ وشــدّادٌ وقحطــانُ؟
أتــى علــى الكــلِّ أمــرٌ لا مــردّ لــه
حتّــى قضــوا فكــأنَّ القــومَ مــا كــانوا
وصار مــا كــان مــن ملــك ومــن ملــك
كمــا حكــى عــن خيــال الطّيْــف وســنانُ

وللحوادث سلوانٌ يُسهِّلُها
وما لما حلّ بالإسلامِ سلوان
فاسأل بلنسية ما شأنُ مرسية
وأين شاطبةٌ أم أين جيّان؟
وأين قرطبةٌ دارُ العلوم فكم
من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين حمصٌ وما تحويه من نزهٍ
ونهرها العذبُ فياضٌ وملآنُ
حتّى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ
حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ
يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ
إنْ كنتَ في سنة فالدهرُ يقظانُ
تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدمها
ومالها من طوالِ الدّهرِ نسيانُ

وقال فيها:

أعندكم نبأٌ من أهلِ أندلُس
فقد سرى بحديث القوم رُكبانُ
كم يستغيثُ بنا المستضعفون وهمْ
قتلى وأسرى فما يهتزُّ إنسانُ
ألا نفوسٌ أبياتٌ لهم همّمٌ؟
أما على الخير أنصارٌ وأعوانُ
يا من لذلّة قومٍ بعد عزِّهمُ
أحالَ حالهمْ جورٌ وطُغيانْ
بالأمس كانوا ملوكاً في ديارهمُ
واليومَ هُمْ في ديارِ الكفْرِ عُبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهم
علَيهمْ من ثياب الذُّلِّ ألوانْ
ولو رأيتَ بكاهُمْ عندَ بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك أحزانُ
لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ
إن كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

وقد عُرف الشاعر ابن الأبار توفي ٦٥٨هـ، بقصيدته السينية التي يرثي فيها مدينته بلنسية ويستنجد بالحفصيين في تونس لنجدتها، التي مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا

إن السبيل إلى منجاتها درسا

٦- دولة بني الأفطس:

وهذا الشاعر عبد المجيد بن عبدون الفهري الذي ولد في يابُرة وتوفي فيها سنة ٥٢٩هـ وكان وزيراً في دولة الأفطس ودولة المرابطين، رثى دولة بني الأفطس بقصيدة قال فيها النويري (إن قصيدته هذه تعد من أشهر المراثي، وأمهات القصائد، لما فيها من الكثير من أحداث التاريخ) ولأهميتها ترجمت إلى عدت لغات، ومما قاله فيها:

الدّهرُ يفجَعُ بعدَ العينِ بالأثَرِ
فما البكاء على الأشباحِ والصّورِ
أنهاك أنهاك لا آلوك معذرة
عن وقْفة بين ناب الليث والظُّفُر
فالدّهرُ حربٌ وإنْ أبدى مسالمةً
فالبيض والسُّمر مثل البيضِ والسُّمْرِ
فلا تغُرّنْكَ من دُنياك نومتُها
فما صناعةُ عينيها سوى السّهرِ
ما للّيالي - أقالَ اللهُ عثرتنا
من الليالي، وخانتْها يدُ الغير -
كم دولة وليتْ بالنصر خدمتها
لم نُبْقِ منها! وسلْ ذكراك من خبرِ

ويتابع في قصيدته ذكر كثير من الأحداث التاريخية، وعادة يذكر الراثي ذلك ليدرك المصاب أن مصيبته ليست بالمصيبة الكبيرة إذا ما قورنت بغيرها واحتملها أصحابها.

٧- دمشق:

دمشق التي صارت عاصمة العالم العربي والإسلامي بعد فتحها بقليل، ولكن دولة بني أمية لم يطل حكمها، حيث قضى عليهم بنو العباس ونقلوا مقر العاصمة إلى بغداد، وصارت دمشق مادة للشعراء يرثونها ويتحسرون على أيام عزها، فهذا عثمان بن الوليد القرشي يحذر الناس ويذكرهم بما حل بدمشق وملوكها من بني أمية، ويطلب منهم أن يتعظوا بما فعل الدهر بهم فيقول:

مَن يأمنُ الدهرَ ممساهُ ومصبحهُ
في كلّ يوم له من معْشرٍ جَزَرُ

بعد ابن مروانَ أودى بعد مقْدرة
دانتْ لهيبتها الأمصارُ والكُوَرُ

ثمّ الوليدُ فسلْ عنه منزلهُ
بالشامِ والشامُ معْسَلٌ له خضرُ

وفي سليمان آياتٌ وموعظةٌ
وفي هشام لأهل العقل مُعْتبرُ

كانوا ملوكا يجرّون الجيوش بما
يقلّ في جانبيه الشوكُ والشّجرُ

فأصبحوا لا تُرى إلا مساكنهم
قفرا سوى الذِّكر والآثار إن ذُكروا

وهذا علاء الدين الأوتادي الدمشقي وهو من شعراء الشام عاش في الفترة التي تعرضت فيها بلاد المسلمين لغزوا التتار، يقول قصيدة طويلة منها أبيات توضح ما حل بدمشق من خراب على أيدي الغزاة سنة ٦٩٦هـ:

أحسنَ الله يا دمشق عزاك
في مغانيك، يا عماد البلاد

وبِرُستاق نيرِ بيك، مع المزّ
ة مع روْنق بذاك الوادي

وبأُنْسٍ بقاسيون وناس
أصبحوا مغنماً لأهل الفساد

طرقتهمْ حوادثُ الدّهْر بالقتـ...
...ـل ونهب الأموال والأولاد

وبنات محجّبات عن الشمْـ...
...ـس تناءتْ بهنّ أيدي الأعادي

وقصور مُشيَّدات تقضّتْ
في ذراها الأيامُ كالأعياد

حرّقوها وخرّبوها وبادت
بقضاء الإله ربِّ العباد

وكذا شارعُ العُقيبةِ والقصـ...
ـرِ وشاغورها وذاك النادي

أصبحوا اليومَ مثل أمس تقضّى
وبكتهمْ سماؤهم والغوادي

ويدور الزمن دورات لنصل إلى العصر الحديث، فإذا القصة تعاد فصولها، فينكب المستعمرون البلدان العربية من جديد بعدة نكبات، ومن البلدان التي نكبت دمشق على يد المستعمر الفرنسي، ففي سنة ١٩٢٦ سلطوا عليها مدافعهم وقذائفهم، وأحالوها أنهارا من الدم وتلالا من الرماد والخراب، فبكاها الشعراء العرب ورثاها كل محب لها وعاشق، ومن

أجمل ما رثيت به قول أمير الشعر العربي أحمد شوقي:

رباعُ الخُلدِ ويْحَكِ ما دهاها أحقٌّ أنها درَسَتْ أحقُّ
وهل غُرَفُ الجنانِ منضَّداتٌ وهل لنعيمهن كأمْسِ نسْقُ
وأين دُمى المقاصرِ من حجالٍ مُهتَّكةٍ وأستارٍ تُشَقُّ
بَرزْتَ وفي نواحي الأيكِ نارٌ وخلْفَ الأيكِ أفراحٌ تُزقُّ
بليلٍ للقذائف والمنايا وراء سمائه خَطْفٌ وصَعْقُ
إذا عصفَ الحديدُ احمرَّ أُفْقٌ على جنباتِه واسودَّ أُفْقُ
وللحريَّةِ الحمراء بابٌ بكلِّ يدٍ مضرَّجة يُدَقُّ

وتجاوبت مع شوقي وشعراء العروبة في الشرق صيحاتُ إخوانهم شعراء المهجر في الغرب، يبكون دمشق لما أصابها من فظائع الفرنسيين، فنسيب عريضة يقول:

صليلُ سلاحٍ وقرْعُ طبولْ وجُنْدٌ قُساةٌ تسوق الحمولْ
وفوق النياق حماةُ القبيلْ تدلَّوا قتيلاً بجنب قتيلْ

٨- فلسطين:

لقد رثيت فلسطين على مرحلتين، الأولى عندما دخلها الفرنجة الصليبيون واستولوا على مدينة بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ، عند ذلك انبرى الشاعر أبو المظفر الأبيوردي الذي توفي سنة ٥٥٧هـ، وقال قصيدة يحض فيها العرب والمسلمين على مساندة إخوانهم أهل الشام للصمود في وجه الغزاة ومما قاله فيها:

مزجْنا دماءً بالدُّموعِ السَّواجمِ فلم يبقَ منا عُرضةٌ للمراجمِ
وشرُّ سلاحِ المرء دمْعٌ يُفيضُهُ إذا الحربُ شَبَّتْ نارُها بالصوارمِ
فإيها بني الإسلام إنّ وراءكم وقائع يُلْحِقْنَ الذُّرى بالمناسمِ
أتهويمةً في ظلِّ أمنٍ وغبْطةٍ وعيْشٍ كنُوَّارِ الخميلةِ ناعمِ
وكيف تنامُ العينُ ملءَ جفونها على هبواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ
وإخوانكم بالشأم يُضحي مقيلُهم ظُهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعمِ
يسومُهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ تجرُّونَ ذيلَ الخفْضِ فعلَ المسالمِ
وكم من دماءٍ قد أُبيحتْ، ومن دُمَى تُوارى حياءً حُسنها بالمعاصمِ
بحيثُ السيوفُ البيضُ محمرَّةُ الظُّبى وسُمْرُ العوالي دامياتُ اللهاذمِ
أرى أمّتي لا يشرعونَ على العدا رماحَهُمُ والدّين واهي الدّعائمِ

وهكذا رثيت القدس كثيراً، وفي العصر الحديث بعد أن دنسها الصهاينة، فلم ترث بلد كما رثيت إلا الأندلس قديماً، فلا يوجد شاعر عربي إلا وبكاها، وكيف لا يرثيها؟ وهي الشهيدة الثكلى.. التي سالت دماء أبنائها في

ساحاتها، وشرد اليهود معظم أهلها إلى أنحاء العالم، ومازالت تحت نير المستعمر.

ومازال العالم العربي والإسلامي يلبس السواد من أجلها، ويعلن الحداد على ما أصابها وأصاب العرب والمسلمين فيها، وإن تناساها البعض، وفرط بها البعض أصحاب النفوس الضعيفة والعميلة، وإن لم يعد يساندها إلا القلة الأخيار.. فإنها ستعود عروس الشام متألقة بأقصاها وقيامتها.

ولكن فلسطين مازالت تحت الاحتلال ومازال أهلها يخوضون المعارك محاولين تحريرها.. وكل الشعراء رثوها وبكوها بفرائد القصائد وعيون ما جادت فيه قرائحهم، يقول (علي محمد طه) في قصيدته (نداء الفداء):

أخي جاوز الظالمون المدى
فحقَّ الجهادُ وحقَّ الفدا
أنتركهم يغصبون العروبـ
ـة مجدَ الأبوّة والسُّؤْددا
وليسوا بغير صليل السيوف
يجيبون صوتاً لنا أو صدى
فجرِّد حسامك من غمْده
فليس له بَعْدُ أن يُغْمدا

ويقول زكي المحاسني:

ما هُزمنا لكي نموت ونفنى
ونُبكِّي الحياة إن نحن عشنا
نحن قومٌ ما نام فينا على الضَّيْـ
ـمِ أبيٌّ ولا على الدهر هُنَّا
كفكف الشعر عن مراثي فلسطـ
ـسين فشعر الدماء أبقى وأغنى

غدُنا المرتجى كما رمتَ آت
بانتقامٍ سيغسل العار عنَّا

وازداد ارتفاع صوت الشعراء في كل مكان، ومن ذلك قصيدة (صوت العرب) للشاعر عادل الغضبان ومنها قوله:

كفاكَ يا غربُ طغياناً ومفسدة
ورَمْيُك الشرق بالويلات والحرب
هذي فلسطين ما زالت مضرّجة
أرجاؤها بدمٍ في الله منسكب
شرَّدت أبناءها ظلماً وسقتهم
إلى الرَّدى عُصباً تُلقى على عُصب
فلا الأذانُ ولا الناقوسُ يُسمعنا
وحين الهدى في فم الإسلام والصُّلُب

أما الشاعر محمد عبد الغني حسن فيقول:

أرضَ البطولة هذه عبراتي
تُهدى إليكِ وهذه حسراتي
دهمتْك من عُصب الزمان بطانةٌ
أفّاقةٌ فهومةٌ الشهوات
لا تستقرّ على الثرى أحداقُهم
إلا على العَدْوات والغارات

وهذه شاعر فلسطين (فدوى طوقان) تقول قصيدتها (بعد الكارثة) وتتفجع فيها على الوطن السليب، ومنها قولها:

يا وطني مالك يخنيٰ على
روحك معنى الموت معنى القدم
جرحُك ما أعمق أغواره
كم ينزَّى تحت ناب الألم

ستنجلي الغمرةَ يا موطني
ويمسح الفجرُ غواشي الظُّلَمِ
والأملُ الظامئُ مهما ذوى
لسوف يُروى بلهيب ودم

ولكن لن يدوم حال العرب على المراثي فقط، فلا بد وأن يأتي يوم ويعود للعرب عزهم ووحدتهم، فلنتذكر قصيدة معروف الرصافي (الأمة العربية ماضيها وحاضرها) التي يقول فيها:

والعُرب اكبر أمة مشهورة
بفتوحها وعلومها وبيانها
وهمُ الأُلى خضعت لهم أُمَمُ الورى
من تركها طُراً إلى إسبانها

إنه يعتز بعروبته بحسه القومي، لذلك قال قصيدة مليئة بالأسى لما أصاب أمته العربية، وهو يريد أن يستنهضها:

يا بني يعْرُب ما هذا المنام
أو ما أسفر صُبحُ النُّوَّمِ؟
أين من كان بكم يرعى الذِّمام
ويلبي دعوةَ المُسهتضم؟
أفلا يَلْذعُكم منيِّ الملام
فلقد ألفظُ جمراً من فمي؟
خارجاً من نفسي كاللهب
مُحرقاً مُهمةً قلبي الدَّنِف
أنا لولا فيضُ دمعي السَّكب
لتحرَّقتْ نيار الأسف

وإن لم يفق العرب وينتبهوا لما حيك ضدهم ولما يُحاك مجددا من تقسيم جديد لأوطانهم، يصيرٍ حالهم كما قالت أم عبد الله الصغير بعدما سلَّم ابنها غرناطة لملك قشتالة:

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً
لم تحافظ عليه مثل الرجال

والحق يُقال إن أردنا العزة وتحرير فلسطين وباقي الأراضي المغتصبة يجب علينا أن نتمثل قول شاعر فلسطين عبد الرحيم محمود:

سأحمل روحي على راحتي
وألقي بها في مهاوي الردى
فإمّا حياة تسّر الصديق
وإمّا ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان
ورود المنايا ونيل المنى
لعمرك إني أرى مصيري
ولكن أغذُّ إليه الخطا
أرى مقتلي دون حقي السليب
ودون بلادي هو المبتغى
يلذّ لأذني سماعُ الصليل
ويبهج نفسي مسيل الدما
وجسم تجندل في المعمعات
تناوشه جارحات الفلا

ويقول أبو سلمى عبد الكريم الكرمي صاحب قصائد الحنين الظامئ إلى الديار والتي تنطق بلسان كل مشرد في العالم:

هل تسألين النجم عن داري
وأين أحبابي وسماري؟

داري التـــي أغفـــت علـــى ربـــوة
حالمـــــة بالمجـــــد والغـــــار
الشـــــمس لا تضـــحك إلا لهـــا
تهـــدي إليهـــا وشـــي أســـتار
والتينـــة الخضـــراء فـــي ظلهـــا
تـــاريخ أشـــواقي وآثـــاري

أما راضي عبد الهادي فيقول باكيا فلسطين:

أنا إن بكيت فلن ألام لأنني أبكي دياري
أبكي على وطني السليب تعيث فيه يد الدمار
أبكي أحبائي واخوتي وخلاني وجاري
باتوا تضمهم الخيام على لظى وسعير نار
أنىٰ نظرت رأيت في قسماتهم بؤسي وعاري

وبعدما نكبت فلسطين هدر عمر أبو ريشة بقصائد عديدة ترثي فلسطين وحال العرب وما وصل إليه فقال:

قـــف علـــى تربـــة المســـيح وشـــاهد
مصـــرع المجـــد فـــوق طهـــر الرمـــالِ
عـــاث فيهـــا المشـــردون رضـــيعو
لـــين الـــذل فـــي مهـــود الضـــلال
كـــل يـــوم يرمـــون جمـــرةَ بغـــيٍ
فـــي هشـــيم مـــن نقمـــة ونكـــالِ
والرجـــال الأبـــاةُ رغـــم إباهـــا
تخفـــض الهـــام، يـــا غـــرام الرجـــال!
نكـــد الـــدهر أن ينـــال جبـــانٌ
مـــن جســـور مشـــدد الأغـــلال
وإذا النـــاب والمخالـــبُ طاحـــت
لطـــم الـــذئب جبهـــة الرئبـــال!

إن صـوت الطعنـات تنخـر فـي العظـــ
ـــم وتزجـي الأهـوال بـالأهوال

وهكذا نرى العواطف تتأجج، والمشاعر تلتهب، حين يُلقي الراثي رثاءه، فيبكي العيون، ويشجي القلوب، ويملأ الصدور أسىً بما يثيرْ من آلام، وما يحرّك من أحزان.

ولقد ساعدت الحياة العربية، المليئة بالحروب والمنازعات، وما في طبيعة الإنسان العربي من نزق، وميل للعنف، وسرعة الغضب كل ذلك ساعد على نشوء هذا الغرض الشعريّ، لأنه الوسيلة الوحيدة لبكاء القتلى والموتى، والتفجّع عليهم.

كانت حياةُ العرب في جاهليتهم غزواً مستمراً، وحروباً متصلةً لا تخمد نارها، ولا تكاد تنتهي، وجاء الإسلام، واستمرت المعارك بين دولة الإيمان الوليدة الفتية من جهة، وبين المحافظين والمتمسكين بشركهم، ودياناتهم القديمة من جهة أخرى، واستمرت بذلك الأسباب الداعيةُ لإثارة الرثاء ودوامه.

واستمرت الفتوحات ونتج عنها شهداء وقتلى، كانت تُذكي شعر الرثاء، وتساعد على استمراره وتطوره. ولئن كانت الفتوحات قد انتهت في عصر بني العباس، فهل انتهت المعارك وانقطعت موجبات الموت؟

لا طبعاً، بل ظل العرب والمسلمون في صراع يكاد لا ينتهي مع جيرانهم على الثغور، بالإضافة إلى الصراعات الداخلية والتي كانت عنيفة أحياناً كما مر معنا، فبعضها استمر لسنوات، وكذلك سقوط البلاد عند ضعفها وانحلالها وتمزقها كل ذلك جعل قرائح الشعراء تجود بأجمل أنواع الشعر وقمة الشعر وأصدقه ألا وهو شعر الرثاء.



وحدها الشام..

شعر: عبد الحميد علي (بدوي الساحل)

زاهٍ صـــمودُكِ يـــا شـــآم يماجـــدُ
ســـير الملاحـــم والزمـــان الشـــاهد
تتقهقـــر الـــدنيا ومجـــدك شـــامخٌ
بالبيّنـــاتِ ودربُ ســـاحلِكِ قاصـــد
عـــبرتْ بنـــاتُ الـــدهر كـــلَّ حصـــينةٍ
واستســـلمت رغـــم الحـــرانِ مقـــاودِ
وخبـــا وهـــيجُ الفـــاتحين ومُزِّقـــت
رايـــاتُ أمجـــادٍ وأخفـــق ســـاعد
وبقيـــت وحـــدك (يـــا شـــآمَ) عزيـــزةً
رغـــم الزمـــان وقاســـيونُك صـــامد
والحاليـــاتُ لمعصـــميكِ أســـاورٌ
ولجيـــدكِ قطـــعُ النجـــوم قلائـــد
وعرينُـــك الغائـــب المهيـــب وســـاحُه
بـــالمرد والجـــرد والســـوابح حاشـــد
إذ أنـــتِ أخـــتُ الشـــمس عاصـــمة الضحـى
والمترفـــات هـــوامشٌ وزوائـــد
همســـت بـــك الأرواحُ في غاياتهـــا
وفـــداك بـــالمهج الرعيـــلِ الصـــاعد
بيـــتُ العروبـــةإذ تماجـــد معرقـــاً
أومـــى إليـــك طريفُـــه والتَّالـــد
ســـجد الزمـــانُ ببابـــه وغنـــت إلى
أمجـــادِه عـــبر الخلـــودِ أماجـــد








الشـــامُ موطنُـــه الأمـــينِ وموئِـــلٌ
جمـــع العروبـــة للعلـــى ومعاهِـــد
وإذا إذا تعـــب النهـــار فإنـــه
يـــأوي لظـــل الغـــوطتين الجاهـــد
وإذا طريـــق الفـــتح ضـــلَّ عـــن الهـــدى
وتلبّـــدت شـــهبُ العلـــى وفراقـــد
فقـــويمُ دربـــك يـــا دمشـــقَ منـــائِرٌ
ومتـــاحفٌ عربيـــةٌ وأوابـــد
يهـــدي الشـــموسَ ضـــحى إلى آفاقِهـــا
إن ضـــلَّ هاديهـــا وغـــاب الراشـــد
ســـفر الملاحـــم في حروفـــك ومضـــةٌ
تـــوحي الخفـــيَّ ونـــورُ سِـــرِّك واحـــد
وعقيـــدة كالشـــمس ســـاطعة الـــرؤى
ألقـــاً وغـــيرُك (يـــا شـــآم) عقائِـــد
أشـــعلتِ راقـــد أمـــةٍ مقهـــورةٍ
في القـــبر فاســـتبق الصَّـــباحَ الراقـــد
وسَـــرتْ طيوفُـــك في النعـــيم فعطـــرت
غـــرد الشـــهيد فـــرف جفـــن ســـاهد
الخالـــدان علـــى الزمـــان وعنفـــه
يـــا شـــام وحـــدَك (والإلـــه الواحـــد)
الصَّـــامدانِ وفي العواصـــف حســـرةٌ
ضـــجَّت فروّعهـــا المخيـــفُ الراكـــد
ســـبحان مـــنٍ زرع الشـــآم كواكبـــاً
خضـــراً وحوَّطهـــا الجـــلالُ الخالـــد
حســـنٌ يـــذوب بـــه الصـــباحُ مشـــاعلاً
ولكـــل حســـنٍ عـــذل وحواســـد







فـــإذا أديمُـــك يـــا دمشـــق مـــراودٌ
وكـــرائم ألـــقُ الحصـــى وخرائـــد
والغوطتـــان مواســـمٌ وبيـــادرٌ
وبكـــلِّ فصـــلٍ للمتـــاحفِ وارد
نامـــت نياســـين الزمـــانِ علـــى ثـــرى
أرجائهـــا وقـــد اســـتطال الهامـــد
وحنـــت حضـــاراتُ الشـــعوب ظميئـــة
فلـــها بريّاهـــا الطهـــور فوائـــد
وجلـــت هويتَهـــا العريقـــة بالشـــذا
فهفـــا لنبعتـــه الخيـــال الشـــارد
يـــا شـــامُ مجـــدَك ســـيرةٌ ومســـيرةٌ
للظـــافرين وكبريـــاءٌ مـــارد
صـــنّاع آســـادٍ وغـــابُ عرينـــه
ســـاح الأســـودِ لموعـــدٍ ومآســـد
ولقـــد يُهـــاب الليـــثُ وهـــو مصـــفّدٌ
وظبـــى الســـيوفِ الهنـــدِ وهـــيٍ غوامـــد
زرعـــت يـــداك الخـــافقين مشـــاعلاً
ومزارعـــاً واليعربـــيُّ الحاصـــد
هـــذي جـــذورُك في الرِّمـــال وريفـــة
رغـــم الهجـــير زكـــت ورفّ الجامـــد
وتـــأنق الـــزرع الخصـــيب ســـنابلاً
وبكـــلِ وادٍ زرعهـــا يتصـــاعد
في كـــل ســـنبلتين مائـــة حبـــةٍ
وعلـــى العطـــاءِ السَّـــمح يزكـــو الـــوارد
شمســـت (بتمـــوز) العطـــاء بيـــادراً
وتســـاقطت رطبـــاً فجُـــنَّ الحاســـد







وعلــى ذرى ســاح الجنــوب تمزقــت

حجــبُ الضــلالة والعــدوّ بدائِــد

ســقط الهجـين علـى الرهـانِ وحمحمـت

خيــلُ الطــرادِ وهــرول المتقاعــد

فُضِــحتْ بنــاتُ الــدهرِ في غاياتهــا

ومغــامرٌ في غــدره ومــزاود

ومنــافق للغــدر يرصــده الــدجى

فــاغتم مرصــودٌ وقهقــه راصــد

يــا بدعَــة العربــي مُــزِّق عِرضــه

وتبــذلت للــراغبين موائــد

غــاوٍ يلفعــه الظــلام ولا ارعــوى

عــن إرثــه نفــرَ البغــاة يــراود

ألعــار أن يشــقى الكــريم بصــنوهِ

ويخــون ســيفَ فتــى الجهــادِ الســاعد

أســتمطر التــاريخ غفرانــا فقــد

رجــم البنــات علــى العفــاف الوالــد

آمنــت بالتــاريخ تكتبــه يــدٌ

وعليهــا مــن ألــقٍ الجهــادِ شــواهد

ريَّانــةً بــالعطر مِثاقــا علــى

خــير العروبــة والوفــاءِ تعاهــد

آمنــتُ بالتــاريخ يُرجِــعُ بالــذي

أودى بطالِعــه الظــلامُ الحاقــد

ويُعيــد عطــرَ (الراشــدين) فيجتلــي

لــذوي العقــولِ الــنيراتِ العائــدِ

هــونْ ففــي بعــض النفــوس أصــالةٌ

مــن محتــدٍ ومشــاعلٌ وروافــد







هـــذي طلائـــعُ يعـــربٍ ونجادُهـــا
والقادســـيَّةُ والعلـــى و مشـــاهد
ووهـــيجُ خيـــبر في الجنـــوب (وحيـــدرٌ)
وعلـــى ذرى اليرمـــوكِ يـــزأر (خالـــد)
هـــذا بريـــق الفـــاتحين ومـــا خبـــت
ثـــاراتُ يعـــربَ أو تحجَّـــم ذائِـــد
صـــورٌ يرهرهـــا الخيـــالُ علـــى النـــوى
وتـــذيع أســـفارَ الخلـــودِ فرائـــد
فعلـــى جنـــون الليـــل قـــد رسـم الصَّـــوى
وجـــهَ النهـــارِ اليعربـــيُّ الناجـــد
في كـــلِّ ثغـــرٍ قـــد تســـمَّر راصـــدٌ
ومقـــاومٌ يغـــزو الـــدُّجى ومراصِـــد
مـــا بينـــه والمـــوتُ ســـرٌّ غـــامض
يرمـــي الغـــزاة بنـــاره ويجالـــد
كـــالجن يقـــذف بالصـــغير فيرعـــوي
طـــاغٍ وتلتحـــف الجحـــور أســـاود
للمـــوت أشـــباحٌ وأســـرارٌ علـــى
ســـاح الـــوغى ومـــآربٌ ومصـــائِد
وبكـــل شـــبرٍ في الجنـــوب مخضَّـــبُ
بـــدم الشـــهادةِ والعقيـــدة ماجـــد
صـــلَّى وســـلَّم للشـــهادة مثلمـــا
يعنـــو لخالقـــه الفقيـــهُ الزاهـــد
وعلـــى الربـــى شـــهقاتُ أغنيـــةِ الفـــدا
والزغـــرداتُ ملاحـــمٌ وقصـــائِد
ألنَّصـــر أبـــدعها وموســـقَ لحنَهـــا
وهـــو الضـــمين لمجـــدها والناشـــد







أنـــا عائـــدٌ يـــا أرضَ آبـــائي ويـــا
وطـــني الجـــريحَ إلى الحمـــى أنـــا عائِـــد
فهنـــا علـــى أرضِ الجنـــوب تحطمـــت
أنيـــابُ طاغيـــة وهـــانَ معانِـــد
لـــيس الـــذي سمـــع الوقيعـــة كالـــذي
رجَّ الوقيعـــة وهـــو فيهـــا الذائـــد
يـــا زهـــوة الفـــتح المـــبين علـــى الـــوغى
إن المقـــاومَ راكـــعٌ أو ســـاجد
وكأنَّـــه في الـــروع في أم القُـــرى
والخافقـــات معابـــدٌ ومســـاجد
وقِـــرى الحجـــيج علـــى الهجـــير وذادُهـــم
الله أكـــبر والشـــهيدُ الشـــاهد
(يـــا شـــامُ) مـــا خمـــد الفـــداء وكيـــف لا
يزكـــو اللّهيـــبُ وفي ذراكِ الواقـــد
يـــا قبلـــةَ الأحـــرارِ في صـــلواتهم
إلا لوجهـــك مـــا توجـــه عابـــد
أنـــتِ الرَّجـــاء وللحقيقـــة شـــأنها
فعـــلاك مشـــهودٌ وغـــيرك مائِـــد
لـــن يهـــدأ البركـــانُ طغيانـــاً وفي
أرضِ العروبـــة غاصـــبٌ أو فاســـد
قَـــدرٌ بـــأن يبقـــى النضـــال علـــى ثـــرى
بـــردى الشـــآم وقاســـيون الصَّـــامد
النَّصـــر معقـــودٌ بكـــفِّ رئيسِـــها
وهـــو الأمـــين لمجـــدها والعاقِـــد
الصـــامدان علـــى الزمـــان وعنفِـــه
ألشـــامُ (والأســـدُ المـــدلُّ القائـــد)






رحلة أدبية مع الشاعر سعيد أبو الحُسن

بقلم:
محمد منذر لطفي

أديب وشاعر وقاص وكاتب مقالة وخاطرة، ومؤسس مجلة (الخابور) عام ١٩٥١ أصبحت تعرف بـ (الكواكب) منذ نهاية عام ١٩٥٥ وحتى بداية عام ١٩٥٧، ومترجم متمكن، ذلك هو (سعيد أبو الحسن) صاحب كتاب (بنو معروف بين السيف والقلم) النثري المطبوع عام ١٩٤٤، ومجموعة (غزة - هانوي - تشرين) الشعرية التي ضمَّها فيما بعد إلى ديوانه الشعري الكامل (من الرباب إلى السمفونية) المطبوع عام ١٩٨٦.. والذي عرفتُ صاحبه على صفحات الجرائد والمجلات القطرية والعربية منذ منتصف الخمسينات وحتى وفاته في نهاية القرن الماضي (١٩٩٩).. وعرفتُه شخصياً منذ عشر سنوات فقط قبل وفاته عندما كنتُ أقدّم أمسية شعرية والصديق الشاعر إسماعيل عامود في المركز الثقافي العربي في السويداء.. وكان وقتها قد استلم حديثاً رئاسة فرع اتحاد الكتاب العرب هناك بعد إنشائه.

في بيته الرومانسي الأنيق، وبحضور كل من زوجته المثقفة الذوّاقة للشعر والأدب، التي كانت مديرة لأحدى ثانويات السويداء وتدرّس اللغة الفرنسية فيها.. والقاص الروائي وهيب سراي الدين أمين سر فرع الاتحاد هناك.. والشاعر الأستاذ إسماعيل والكاتب والأديب الصديق نعمان حرب.. كان لي معه لقاء أدبي امتدّ أكثر من ساعتين، وشارك فيه الحضور المجتمعون كافة، وأذكر أننا تبادلنا في ذلك اللقاء كثيراً من الآراء حول كثير من أمور الساعة الأدبية وشؤونها وشجونها.. والتي شملت الأجناس الأدبية كافة.. والمدارس الأدبية كافة أيضاً.

وللحقيقة بكل أبعادها أقول: إنَّ ما كان يهمني في ذلك اللقاء هو أخذ فكرة كاملة متكاملة (شخصية وأدبية وشعرية) عن هذا الكاتب الذي قارب وقتها الثمانين من العمر، والذي كان ما يزال متواضعاً في سلوكه الذي ارتضاه لنفسه في هذه الحياة عن قناعة تامة، فهو من النوع الهادئ الرزين الذي يُؤثر الظلَّ على النور، بالرغم من أن لديه الإمكانات الأدبية التي تُتيح له الشهرة.. وبخاصة إذا ما قيس بأدباء وشعراء جيله.. وإذا ما قيست أعماله الأدبية والشعرية بالمقاييس والمعايير الفنية التي كانت سائدة في سورية خلال الربعين الثاني والثالث من القرن العشرين.

وهو أيضاً من النوع الذي يعمل بصمت، ويذوِّب نفسه وقلمه شمعة لتضيء الطريق أمام الآخرين من خلال كتاباته التي شملت معظم الأجناس الأدبية أو كادت، وبخاصة عندما كان يتعرض للهمِّين القومي والوطني.. يليهما الهم الاجتماعي، حيث تُشكِّل هذه الهموم ثالوثاً يمثل الهاجس الدائم والشغل الشاغل ومركز الثقل بالنسبة لأدباء وشعراء تلك المرحلة الزمنية التي تميَّزت بطغيان الروح الوطنية الشامخة التي عاشها قطرنا العربي السوري.. وباندفاع جماهيري عفوي وعارم من قبل الجميع نحو تحقيق الحرية والاستقلال وإجلاء المحتل.. سواءٌ أكان عثمانياً أم فرنسياً أم صهيونياً، لذلك فلا غرابة إذا رأينا أن معظم شعر الشاعر سعيد أبو الحسن وحتى معظم كتاباته الأدبية الأخرى تدور في فلك الدفاع عن أرض الوطن.. وتمجيد البطولة والتضحية والفداء من أجل تحقيق النصر والجلاء.. والأخذ بيد المجتمع نحو الأفضل والأكمل في شتى ميادين النهضة والحضارة والبناء.

والواقع يشير إلى أن شاعرنا قد عاصر أحداثاً عربية جساماً خلال مسيرته الحياتية، منها الوطني المحلي كالكفاح من أجل الاستقلال، والتَّغني بالوحدة بين سورية ومصر.. ومنها القومي الشمولي كالصراع مع الصهيونية والإمبريالية من أجل إعادة الحق العربي المغتصب في فلسطين والضفة والجولان وجنوب لبنان، فكانت عطاءاته الشعرية بمثابة الصدى الواعي لتلك الأحداث العربية الجسيمة الجسام، ومع أنَّ مثل تلك الأحداث الوطنية والقومية كان بإمكانها أن تصنع منه شاعر ديوان وسلطان كما صنعت من البعض الذين استفادوا منها حتى الثمالة، إلاَّ أنه لم يفعل ذلك.. لسبب بسيط واحد هو أنه من النوع الذي يؤمن بأن الأدب يجب أن يخدم الوطن والشعب ويُسَخَّر لهما ولمصالحهما العليا لقناعة تامة منه بأن ما يفعله - والحالة هذه - يُمثِّل واجبه المقدس نحو وطنه وأمته، ويجب عليه أن يؤدِّيه تلقائياً ويعمل من أجله لا من أجل طمع في جاه أو منصب أو سلطان.

من أجل ذلك كان يؤمن إيماناً راسخاً وكبيراً في مجال الشعر والأدب بمبدأ الالتزام الطوعي النابع عن ذات الشاعر أو الكاتب، كما كان - وهذا رأيي - من الشعراء والكتاب الذين يرون أن الخصومة في الالتزام لم تنشأ إلاّ عن خلط بينه وبين الإلزام، ذلك أن نضال الأدب في سبيل الحياة والمجتمع لايمكن تصوره إلاّ مع جبرية الالتزام لا الإلزام، وأعني بالجبرية هنا أنها مفروضة على الشاعر أو الكاتب تلقائياً

من طبيعة رسالته ومسؤولية ضميره.. لا يتلقاها من خارج.. ولا يأمره بها آمر.

وإذا كان الشاعر أبو العلاء المعري قد قدّم لنا منذ عشرة قرون أو يزيد مثلاً رائعاً لجبرية الإلتزام من حيث هي مسؤولية ضمير وأمانة كلمة كما تقول الدكتورة بنت الشاطئ، فكذلك فعل روّدا التحول.. وطلائع الثورات من قبل أن تسمع دنيانا العربية بقضية الالتزام، أو تخوض في جدلها العقيم حول الأدب الهادف وغير الهادف، والفن للفن أو الفن للمجتمع، ولا علم لي بثورة عرفها التاريخ على مساره الطويل لم تسبقها طليعةٌ فكرية وأدبية تكفّلت عن التزام تلقائي نابع من الذات بتعبئة القوى المخزونة للشعوب وحراسة وعيها وضميرها، والتمرد على الفساد في إبّان ضراوته، ورجم الطغيان في عنفوان جبروته، والسهر في ليل المحنة حرّاسا على ضمير الجماعة يحدون ركبها في مسراه بالدعاء لميلاد فجر جديد.

هذا هو الالتزام الحقيقي الذي كان يؤمن به الشاعر والكاتب والقاص سعيد أبو الحسن ويتمثّله ويدعو إليه، فهو كشاعر وطني قومي مشبع بروح الجماعة والأمة والمجتمع يعالج موضوعاته الشعرية من خلال هذا الالتزام، وعندما أصفه بما تقدم فإن ذلك الوصف يُجسِّد الصواب عينه، وهو من الذين يؤمنون بأن الشاعر كصدفة المحاصر لا يُفرز عصارته الثمينة (اللؤلؤة الشعرية أي القصيدة) إلاّ إذا حرّكه إلى درجة كافية عامل داخلي (أيّا كانت هوية ذلك العامل وأبعاده) يحمل معه شحنات إيجابيةً عالية.. فاعلةً ومنفعلة على حد سواءٍ، وهو من الذين كانوا يؤمنون أيضاً بأن الأحداث عندما تصل بالأمة والوطن والشعب حد الفاجعة أو الكارثة القومية فلا داعي وقتها للركض لهثاً من أجل البحث عن المستويات والصيغ الفنية (النماذج والمُثُل) للإنتاج الشعري والأدبي.. وإنما البحث عن التأثير المباشر لذلك الإنتاج على الناس وتحريضه لهم ليدافعوا عن الأرض والوطن.. والقيم والإنسان، وهو من الذين كانوا يؤمنون ثالثاً بأن الأسلوب هو الشاعر أو الكاتب أو القاص وأن العمل الأدبي (أياً كان نوعه وجنسه) يجب أن ينطلق من بيئته ويكون ابنها البار من حيث (المفردات والتراكيب.. والقيم والمُثل، والألوان والألحان، والأخيلة والمعاني).. يجسّد ملامح تلك البيئة، ويتّسم بطابعها، ويتغذى بمعطياتها، لذا فلا غرابة إذا رأينا أن معظم الأعمال الأدبية للشاعر والكاتب سعيد أبو المحسن، مزيج من محبة وطنٍ وإنسان، ووحدة قوم ومجتمع، ونصرة حقٍ وإنصاف مظلوم، وأريج روض وموسم عاشق، ومعاتبة دهر وشكوى متألم، وبحة ناي وأحلام نجم، ووشاح بدر، ووشوشة نسم..!

كلمة أخيرة أحب أن أختتم بها هذه الرحلة الأدبية.. وهي أن الشاعر الحق كما قال فرنسيس جامس ذات يوم: "طفلٌ صغير.. وإذا لم يكن طفلاً صغيراً بريئاً يتكلم من قلبه بطل أن يكون شاعراً حقاً"..

وهذا ما رأيناه واضحاً وجليا بالنسبة لشاعرنا وأديبنا الكبير الأستاذ سعيد أبو الحسن الذي قضى مؤخراً في السويداء بعد أن عاش نشوة الماضي وذكرياته بكل ما يحمل معه ذلك الماضي من جلال وجمال.. وأنوار وظلال.. وآلام وآمال..

بهية بوسبيت الأديبة التي حفرت طريقها في الصخر

بقلم:
عيسى فتوح

بهية عبد الرحمن بوسبيت أديبة وقاصة وروائية وصحفية ومربية سعودية، وكاتبة عصامية حفرت طريقها الشاق في الصخر، حتى استطاعت أن تكوّن نفسها، وتتربع على سدة الشهرة، وتغدو أديبة مرموقة يشار إليها بالبنان.

ولدت السيدة بهية في مدينة (المبرز) في (الأحساء) بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وتلقت دراستها في المدارس الرسمية حتى نالت شهادة الدراسة الابتدائية عام ١٩٦٨، والثانوية (الفرع الأدبي) عام ١٩٧٦، ثم التحقت بعدة دورات للغة الإنكليزية والكمبيوتر وعلوم المكتبات وإدارتها وتنظيمها، لكن هذه الدورات لم تصرفها عن إشباع ميولها الأدبية، والإقبال على قراءة الكتب، تنهل منها بنهم لا يرتوي وجوع لا يشبع، ففتحت بذلك لنفسها أبواباً على عوالم المعرفة والثقافة الجادة، مما عوضها عن الدراسة الجامعية.

لقد اختارت لنفسها جامعة الحياة المفتوحة التي تعطي دون حدود أو شروط أو قيود، تأخذ منها ما تشاء، تنتقي من كل بستان زهرة، ومن كل بحر قطرة حيث تقول: «توقفت عن التعليم، وأخذني الزمن، وأخذت منه فترة مع القراءات المتنوعة، فالاطلاع هو نهاية طموحي، وفي أوراق الكتب كانت الجامعة التي اخترتها، فما أجملها جامعة دون قيود أو خوف، أو رهبة من الامتحانات!».

عملت موظفة في مكتب التوجيه التربوي بالأحساء، ونالت جائزة (أبها) الثقافية، وهي

عضو في جمعية (فتاة الأحساء الخيرية) وجمعية (الثقافة والفنون) في الطائف...

آثارها الأدبية

١- درّة من الأحساء (رواية) - مؤسسة الجزيرة - الرياض ١٩٨٦.

٢- ثمرة الكفاح (مقالات اجتماعية) - مؤسسة الجزيرة - الرياض ١٩٨٨.

٣- مأساة نوره وآخرين (قصص) - دار الراية - الرياض ١٩٩٠.

٤- وتشاء الأقدار (قصص) - مؤسسة الجزيرة - الرياض ١٩٩٠.

٥- شيطان العصر الحديث «صدام حسين» - عالم الكتب - الرياض ١٩٩١.

٦- الليلة الأخيرة في الكويت - عالم الكتب - الرياض ١٩٩١.

٧- المصيدة (قصص) - دار الصميعي - الرياض ١٩٩٣.

٨- كيف نجعل من الطفل رجل المستقبل الصالح - دار الصميعي - الرياض ١٩٩٥.

٩- امرأة على فوّهة بركان (رواية) - عالم الكتب - الرياض ١٩٩٦.

١٠- سر في أعماقي (قصة طويلة) - دار الصميعي - الرياض ١٩٩٧.

١١- حكاية عفاف والدكتور صالح (قصص) - عالم الكتب - الرياض ١٩٩٩.

بوسبيت روائية وقاصة

من الملاحظ أن الأديبة بهية بوسبيت استمدت معظم أحداث رواياتها وقصصها القصيرة من صميم المجتمع السعودي المحافظ، وقد وقعت هذه الأحداث في مناطق مختلفة من المملكة العربية السعودية، وفي فترات متفاوتة من الزمن، وظلم القدر أبطالها سواء كانوا رجالاً أم نساء، فالمرأة ظلمت من الرجل ومن الحياة معاً، وعانت وضحت وصبرت، وكذلك الرجل، فكم من رجال ظُلموا مع النساء!. كما في قصتها (نور في أعماق الظلام) في مجموعتها القصصية (وتشاء الأقدار).

كان أول عمل أدبي أصدرته بهية بوسبيت عام ١٩٨٦ هو روايتها (درة من الأحساء) التي حققت فيها الريادة كأول روائية وقاصة في واحة الأحساء، وقد صورت في هذه الرواية الحياة الاجتماعية لفتاة من الأحساء، قد تكون هي الكاتبة نفسها، ولكنها عرضتها بطريقة درامية لتبعد الشكوك عنها، والرواية سهلة الأسلوب، بسيطة العرض، جيدة الحبك، وما يؤخذ عليها أنها استخدمت فيها بعض الألفاظ العامية كي تبقى قريبة من الواقع.

أما مجموعتها القصصية (وتشاء الأقدار) فقد ضمت عشرين قصة كتبتها بين عامي ١٩٧٦ و ١٩٨٣ منها: لا تسرع فالطريق خطرة، أمي في قلق، لا أريد شريكي ثريا ولا جميلاً، وبنيت قصري عالياً، الخوف الذي كان سعادة، زجاجة عطر، والداي هما السبب، الغربة ضيعت صديقتي، نور في أعماق الظلام، بنيت لها بيتاً على حطام بيتي، امرأة في الأربعين، الضائعة، أيهما أختار، الحب الذي ضيعني، وتشاء الأقدار التي صورت فيها الواقع المرير الذي تعانيه الفتاة السعودية

المتمثل في زواج كبار السن من فتيات صغيرات في أعمار بناتهم، وما يجرّه هذا الزواج غير المتكافئ عليهن من ويلات، وقد يكون سبباً مباشراً في انجرافهن وسقوطهن في الهاوية...

أما قصتها (أمي في قلق) فتتحدث فيها عن أم واعية ومتفتحة ساعدت ابنتيها على التفوق والنجاح لتدرسا التمريض والصحافة المهنتين اللتين لا يرضى عنهما المجتمع السعودي، ويعتبرهما خاصتين بالرجال، الأمر الذي انعكس على نفسيتي البنتين، وجعلهما تخوضان صراعاً داخلياً حاداً.

كما تتحدث في قصة (الفيديو) عن مشكلة وظاهرة اجتماعية لها سلبياتها وإيجابياتها في آن واحد، وهي انعكاس هذا الجهاز المغري على الناشئة من الناحيتين الدراسية والسلوكية، فهو من الناحية الدراسية يشغلهم عن أداء واجباتهم المدرسية ويلهيهم عنها، ومن الناحية السلوكية يشكل خطراً عليهم، لما يُعرض فيه من أشرطة قد يكون فيها ما يخدش الحياء، ويغرس في النفوس بعض السلوكات الخارجة عن الحشمة والأدب.

وتعالج في قصة (والداي هما السبب) مسألة تعدد الزوجات، دون أن يكون هناك ما يبرر ذلك من شرع أو عرف، ودون أن تُسأل الفتاة أو يُؤخذ رأيها، ويكفي موافقة الجد والأب على طالب يدها حتى تتم الصفقة!

وتتعرض في قصة (لا أريد شريكي ثرياً ولا جميلاً) إلى مشكلة مماثلة، وهي عدم التكافؤ في السن بين الزوجين، وما يجرّ ذلك من متاعب مهما كان الزوج غنياً، فالفتاة حتى لو كانت فقيرة تفضل الشاب الذي يناسبها في العمر، لكن المال غالباً ما يقلب الموازين ويغيّر المفاهيم.

* * *

لقد طرحت الأديبة بهية بوسبيت الكثير الكثير من المشكلات الاجتماعية والسلبيات التي تعانيها المرأة في المجتمع السعودي خاصة والمجتمع العربي عامة دون أن تضع لها الحلول الجذرية، لكنها في مجموعتها القصصية الأخرى (مأساة نوره وآخرين) حاولت أن تضع بعض الحلول لهذه المشكلات، ومنها مشكلة تعاطي وإدمان المخدرات، فقد عمدت أحياناً إلى إسداء التوجيه والنصح لإنقاذ المجتمع من هذا الداء الوبيل، مشخّصة الداء وواصفة الدواء معاً، علماً بأن النصح في سياق القصة كثيراً ما يفسد جماليتها ويحولها إلى مواعظ غير مستساغة.

أما روايتها (امرأة على فوّهة بركان) فهي رواية اجتماعية أيضاً، تحكي فيها قصة أسرة تمر بمنغصات كثيرة في الحياة، فبطلتها (شريفة) تصارع وتكافح العديد من المصاعب لتحافظ على كرامتها وكرامة أسرتها... فوالدها وزوجها يعيشان بعقلية متخلفة قديمة وبالية، ويعمهان بجهالة جهلاء وضلالة عمياء – كما يقول الناقد السعودي أحمد الديولي – رغم تغيّر

الزمن، وانتشار التعليم، وازدياد الوعي في المجتمع العربي، إلاّ أن أمور هذه الأسرة تقترن بهذين الرجلين اللذين لم يحسبا للتغير أي حساب...

ويضيف أيضاً أن الكاتبة عرضت أحداث رواياتها بشكل منطقي، وبطريقة سهلة ومشوّقة، حتى إنها جعلت القارئ يتفاعل مع هذه الأحداث، كما استغلت بعض الشخصيات لتسقط عليها صوراً من الحياة التي عاشتها في مدينتها، بل في الأحساء بصفة عامة، وصولاً إلى رصد بعض العادات والتقاليد في الأحساء، وذكر بعض الحرف التي كانت معروفة فيها قبل سنوات نهضتها الحديثة.

وفي قصتها (سر في أعماقي) عالجت وضع شريحة من نزيلات دار الرعاية الاجتماعية التي تضم فئات مختلفة من النزيلات، لكل واحدة منهن ظروفها الخاصة، وعالمها المختلف، وتكوينها الاجتماعي الذي تندرج تحت تصنيفه.

بطلة هذه القصة طفلة نقلت إلى دار الرعاية الاجتماعية إثر حادث أليم للعناية بها، ولم يعرف أحد شيئا عن شخصيتها أو هويتها، فعاشت في هذه الدار بشكل طبيعي، وأظهرت الكثير من النجابة والتفوق رغم ما يحيط بها من ظروف قاهرة، وحيرة حول هويتها المجهولة، وأسرتها التي عجزت عن الوصول إليها سنوات طويلة... وبعد أن كبرت وتخرجت من الجامعة تزوجت شاباً انتشلها من هذه الدار، ثم عملت باحثة اجتماعية في إحدى المدارس الثانوية، ولكن إحساسها ظل يؤرقها لتعرف حقيقتها.

حين تعرفت في المدرسة على المستخدمة أحست بأن هناك رابطة بينهما، وهنا تكون المفاجأة، فقد تبين أن المستخدمة ما هي إلاّ أم الفتاة التي فقدتها طفلة إثر الحادث الذي جرى لها وأدى إلى فقدان ذاكرتها بعض الوقت، وكانت تظن أن ابنتها قد ماتت في الحادث الأليم.

لقد نفذت الكاتبة من السرد القصصي إلى وصف الأحساء ومتنزهاتها وذكر مدنها كالمبرز والهفوف والكوت، وتطرقت إلى وصف العادات والتقاليد في الأفراح والأتراح، وسقوف المباني وما يستخدم فيها من أخشاب، ووسائل النقل القديمة مثل (القاري) وهو عبارة عن صندوق له عمودان من الأمام يربط بينهما حمار يجر هذا الصندوق، ويحمل في الصندوق الركاب والبضائع والأثقال ومحاصيل المزارع...

ما يأخذه الأستاذ أحمد الديولي في كتابه (بهية بوسبيت بين الصحافة والأدب) الذي اعتمدنا عليه في هذه الدراسة استخدامها الأساليب والصيغ العامية، ووقوعها في بعض الأخطاء الإملائية والمطبعية، ويجدر بكاتبة متميزة مثل بهية بوسبيت أن تحرص على خلو مؤلفاتها من هذه الهنات التي تشوّه جمال وجه مؤلفاتها.




تحت المطر..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

مــــا لهــــا الأيّــــامُ تبكــــي مــــا لهــــا

أهــــيَ مثلــــي ضــــيَّعَت آمالَهــــا

عــــاشَ قلــــبي في سُــــوَيعاتِ المُنــــى

ثُــــمَّ غشَّــــاها أســــىً فاغتالَهــــا

هــــذه أيامُنــــا تمضــــي بنــــا

وأنــــى باقِيَــــةٌ حيــــثُ أنــــا

انظِــــمُ الشِــــعرَ أشــــدو للــــهوى

وأُغنّــــي لِمتاهــــاتِ المُنــــى

وأنــــا شــــاعِرةٌ ذاتُ خيــــال

يَنشُــــدُ الحُســــنَ ويســــتوحي الجَمــــال






رُبَّمـــــا ألفَيتُـــــــهُ في وردةٍ

في كتـــابٍ في دُعـــاءٍ في ابتهـــال

وأنـــا النجمـــةُ في أفـــقٍ ســحيق

تَفـــتِنُ الكـــونَ بـــلألاءِ البريـــق

هـــل عَلِمـــتُم مـــن أســاها أنَّـــي

أُرسِـــلُ النـــورَ وفي قلـــبي حَريـــق

أنـــا وهـــمٌ أنَ طيـــفٌ مـــُن ســـراب

أنـــا سِـــرٌّ مُغلَـــقٌ خلـــفَ حِجـــاب

مـــلأَ الـــدَهرُ شـــبابي شَـــجَناً

فكـــأني لم أعِـــش عهـــدَ الشـــباب

أمطـــريني أمطـــريني يـــا سَـــماء

وانظُـــريني نحـــنُ في الـــدمعِ ســـواء

وإذا شِـــئتِ فكُفّـــي واترُكـــي

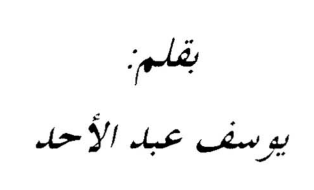
لِفـــؤادي ولعـــينيَّ البُكـــاء





الأديب والباحث المسرحي

نصري قسطندي الجوزي



بقلم:
يوسف عبد الأحد

أديب مرموق، وباحث مسرحي رائد، عمل في سلك التعليم مدة تجاوزت نصف قرن في مدارس القدس ودمشق.

سيرة حياته

ولد الأديب نصري الجوزي في مدينة القدس بفلسطين عام ١٩٠٨ تلقى دراسته الابتدائية والثانوية في مدرسة المطران الإنكليزية بالقدس ونال دبلوم الصحافة بالمراسلة من لندن بإشراف مديرية التربية والتعليم.

أقبل على المطالعة منذ صغره، وتأثر بأعلام الأدباء العرب المعاصرين أمثال طه حسين وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني، ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم وخليل السكاكيني وغيرهم.

تولى تحرير مجلة (المدرسة الوطنية العليا) في بيت لحم بين عامي (١٩٣٥ - ١٩٣٩) والمجلة البطريركية للسريان الأرثوذكس بالقدس بين عامي (١٩٣٦ - ١٩٣٨).

وفي عام ١٩٣٢ عمل في التعليم في مدارس القدس منها المدرسة الوطنية

لأرثوذكسية ومدرسة المطران وكلية الأمة وكلية شميدت للبنات والمدرسة الوطنية العالية للبنات في بيت لحم ومديراً للمدرسة الوطنية لأرثوذكسية في القدس.

أسس مع إخوته صليبا وجميل وفريد وابن عمهم إميل الجمعيات الأدبية والتمثيلية منها الفرقة المتجولة الأرثوذكسية وجمعية الفنون والتمثيل، ونادي الشبيبة الأرثوذكسية، وفرقة النصر.

كانت فرقة الجوزي التي تأسست عام ١٩٣٦ أول فرقة أذاعت فصولا تمثيلية من محطة إذاعة القدس، ومحطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية، وإذاعة لندن واستمرت حتى عام النكبة ١٩٤٨.

لقد أغنى الأستاذ الجوزي المكتبة العربية بطائفة من المسرحيات الهادفة لبث الروح الوطنية في نفوس الطلبة.

وأصدر كتابين هامين: (تاريخ المسرح الفلسطيني) و (تاريخ الإذاعة الفلسطينية) ١٩٣٦ - ١٩٤٨.

وفي عام ١٩٤٨ هاجر إلى دمشق مع عائلته وعمل في التعليم في المدارس الرسمية والخاصة حتى عام ١٩٥٤.

عيّن مراقباً للمكتبة الأميركية بدمشق عام ١٩٥٤ وأسندت إليه وظيفة مراقب المطبوعات ثم رئيساً لقسم الترجمة وانتقاء الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية واستمر في عمله هذا حتى عام ١٩٦٧، ثم عاد إلى التعليم مرة أخرى حتى عام ١٩٧١ إلى أن تفرغ للكتابة والتأليف والنشر..

منح وسام القدس للثقافة والآداب والفنون خلال المهرجان الذي أقيم في القاهرة عام ١٩٩٠ بمناسبة اليوبيل الفضي للثورة الفلسطينية وذلك تقديراً لإسهامه الإبداعي في مسيرة الثقافة الوطنية الفلسطينية.

آراء وشهادات الأدباء:

١ - وداد سكاكيني:

"لقد استهواه أدب المسرح فقرأ تاريخه وأصوله وجعل جانباً من هذا الأدب مجالاً لخواطره وآرائه فكتب عدة مسرحيات للمدرسة وللإذاعة وألف فرقة باسمه للتمثيل".

٢ - عيسى فتوح:

"كان الأديب نصري الجوزي أحد رواد الحركة المسرحية في فلسطين مؤلفا وممثلا،

فقد عكف منذ سنوات على تأليف كتابه القيم (تاريخ المسرح الفلسطيني) منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وجلاء الأتراك عن فلسطين حتى نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ فجاء كتاباً مختصراً وجامعاً في آن واحد".

٣- حسن حميد:

"يعد الأستاذ نصري الجوزي واحداً من أقدم المهتمين بالمسرح الفلسطيني كتابة وتمثيلاً، وهو بحق الرائد الأول لهذا الفن الذي امتدت قامته وتطاولت في أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات، وتاريخ الفن المسرحي الفلسطيني غير مكتوب وغير معروف في أيامنا هذه ونصري الجوزي هو الحافظة التاريخية الوحيدة الحية".

٤- طلعت محمود سقيرق:

"نصري الجوزي واحد من رواد المسرح المسرحي الفلسطيني قبل عام ١٩٤٨ وقد ساهم بفاعلية كبيرة في وضع البصمات الأولى على صفحة هذا المسرح تأليفاً وتمثيلاً وإخراجاً ومعايشة وتأسيساً للفرق والنوادي إلى جانب تجربته التمثيلية في إذاعة فلسطين آنذاك".

أعماله المسرحية المطبوعة

١- الشموع المحترقة - (مسرحية للكبار) - القدس ١٩٣٦.
٢- ذكاء القاضي - (مسرحية للطلبة) - ١٩٤٥ - ط٢ دمشق ١٩٤٩.
٣- بدنا راديو - (مسرحية للطلبة) - القدس.
٤- العدل أساس الملك - (مسرحية للطلبة) - ١٩٤٦ - ط٢ دمشق ١٩٥٢.
٥- عيد الجلاء - (مسرحية للطلبة) - دمشق ١٩٥٦.
٦- ذكاء القاضي - العدل أساس الملك - عيد الجلاء - (سلسلة مسرحية) - دمشق ١٩٧٠.
٧- فلسطين لن ننساك - وفاء الأصحاب - حطموا الأصنام - (سلسلة مسرحية) - دمشق ١٩٧١.
٨- خمسة فصول مسرحية - ومقدمة بقلم عجاج نويهض - ١٩٧٤.
٩- المسرح الفلسطيني - قبرص ١٩٩٠.
١٠- تاريخ الإذاعة الفلسطينية - قبرص ١٩٩١.
١١- البيت السعيد - ترجمة عن الإنكليزية.
١٢- عالمك العلمي - ترجمة عن الإنكليزية.

نظرة عجلى في ديوان زكي المحاسني

بقلم:
وحيد الدين بهاء الدين
العراق

على أثر قيام مجلة (الأديب) اللبنانية – أيلول ١٩٧١، بنشر مبحثي الأدبي التحليلي (زكي المحاسني: نابغة من دمشق) وافتني منه رسالة مستعجلة مكثفة، كما لو كانت برقية عبر أمواج الأثير، هذا نصها:

"سلّم الله يدك وأدام قلمك ورعى عهدك وودك واسلم لصديق العمر.. زكي المحاسني".

كنتُ أعددتُ العدة من تلقاء نفسي أن أكتب هذا المبحث بعد صدور كتابي (شخصيات من الأدب المعاصر – دار الضاد حلب ١٩٧١ وقبل تساؤل كبرى بنات المحاسني (ذكاء) وهي بين يديه، تساؤلاً سابق الأوان عن السرّ في إحجامي عن دراسة جوانب من حياة أبيها العلمية والأدبية، على غرار الآخرين مع ما بيني وبينه من تحيات متبادلة ومشاعر مشتركة، كان لتطاول الأيام دور في رسوخها وحضور في شموخها.

بعد شهر من ذلك أردف المحاسني كلماته تلك الحكيمات المنتقاة في (بريد الأديب – تشرين الأول ١٩٧١) المقالة مصبوبة في قالب رسالة، هي قارورة من عطر وشعر، رصّعها عفواً صفواً بما لا أصدق منه ولا أعمق، وكنت بعد أن وجدتك استوعبت الكلام عن أعمالي الأدبية وكتبي التي لم يكن في حوزتك بعضها، أتمنّى وأتوقع أن أجدك متكلماً على الجانب الروحي مني والعاطفي وأريد الجانب الشعريّ وإن كان كلامك على أسلوبي في النثر مهيّجا لأسلوبي في الشعر"، ثم يستطرد: "وكم أطمع أن أجدك في مقال ثانٍ متكلماً على شعري ليتمّ فضلك محبوكاً من جانبيه" إلى أن يدرك قرارة الموجة وهو لا يني يجدّد طمعه وأقول أنا "طموحه" أطعمتني ولم تشبعني فأنا أنتظر قصعتك الثانية الملأى بما طاب من الشعر

والسحر واسلم لصديق العمر، أخيك على الدهر..

* * *

وتلاحقت ثلاثة عقود ونصف؛ وفي خلالها قضى المحاسني ثم لحقتْ به قرينته وداد سكاكيني، اتفق أن هبطتُ دمشق في صيف عام ٢٠٠٧ قادماً من تركيا سائحاً عابرَ سبيل، ووجبت زيارة ابنتهما الباحثة العلمية السيدة سماء المحاسني وبيننا سابق تعارف وتراسل، بغية التسليم عليها والتعبير لها عن ما لوالديها من منزلة ومعزّة في نفسي..

في هذه الزيارة أحاطتنا سماء المحاسني - أنا وابنتي الطبيبة أنسام التي صاحبتني - برعاية سابغة وفاجأتني ببعض مؤلفاتها ومترجماتها ناهيك بديوان أبيها، هذا الذي سررتُ به وقررت في ذاتي تنفيذ وعدي القديمِ - الوعد حق - بكتابة موضوع فيه تجديداً لذكراهُ الخامسة والثلاثين، واحتفالاً بشعره الذي يسعى أن ينال حظه من الدراسة والبحث والتقييم من الكتّاب والنقّاد في سوريا والوطن العربي.

* * *

في عام ٢٠٠٦ وبمناسبة الاحتفال بمدينة حلب عاصمة الثقافة الإسلامية قامت وزارة الثقافة السورية بنشر ديوان المحاسني في أربعمائة صفحة من القطع الكبير وعلى ورق جيد وبغلاف مقبول، ولولا الأغلاط الطباعية الكثيرة والهنات الهيّنات التي سادته والتي تنمّ على التهاون والتقصير في حقه لكان هذا المطبوع الذي انتظره القراء والشعراء منذ زمن طويل، أفضل، وأجمل..

فالعجيب أن لا يكون هناك الماح أو تنويه بمن اضطلع - فرداً كان أو جماعة أو مؤسسة - بالإشراف على طبع هذا الديوان وتصحيحه وتدقيقه، لما في ذلك من مسؤوليةٍ أدبية ومخالفةٍ لمنهج التحقيق العلمي.

ظهورُ الديوان بعنوانه الحالي هو الشائع والمتعارف عليه والمرغوب فيه في عالم الطبع والنشر منذ القديم، وإنما هذا التقليد لم يعد متبعاً أو مراعىً في الوقت الحاضر لاختلاف الأذواق وتنوّع الرؤية، وإنْ كان المحاسني شرع بجمع شعره (العتيد) وقرر أن يسميَ ديوانه الكبير الضخم باسم ابنتيه (ذُكاء وسماء) كما أعلمني ذلك قبل وفاته بستة أشهر.

زكي المحاسني شاعر مخصاب مشحوذ القريحة موصول الإنتاج، وشعره الأخواني المنثور معظمه في مجلة (الأديب) اللبنانية، والذي أفرزته المناسبات الطبيعيةِ والتداعيات الآتية، من الغزارة بمكان بحيث يلفت النظر، وكان يقتضي أن يفرد لهُ باب مستقل في الديوان إلى جانب الأبواب الأخرى، ولو جُمع هذا الشعر الذاتي والأخواني من مظانه ومراجعه لاستقام ديواناً يعتدُّ به ويُحتفى، وربّما كان هناك قصائد ومقطوعات أخرى مبثوثة في الدوريات والكتب، لم تدرج في الديوان لسبب أو لغيره، كما هي الحال في قصيدته (رثاء الصديق العظيم الدكتور مصطفى جواد) هذه القصيدة التي بعث بها إليّ لأصدّر بها كتابي (مصطفى جواد، فيلسوف اللغة العربية وخططي بغداد الفرد) الذي صدر في مطلع عام ١٩٧١ ببغداد.. وبها استهل المحاسني قائلا:

تلبس الروحُ فيكَ ثوبَ الحداد
(مصطفى) يا بن خير و (جواد)

بعد نضج في العبقرية نضحي
رهنَ تَرب فيها العفا والبادي

أترانـــا بنـــي الحيـــاة، ثمـــاراً

فـــوق روح مـــن البلـــى والنفـــاد

وتهـــزّ الـــريح الســـموم لقانـــا

طائحـــات لنـــا بســـوء مـــراد

ما هو السرّ في الممـــات وفـــي العيـــ

ــش وفـــي ســـكتة الحشـــا والفـــؤاد

* * *

ولأن المحاسني طرق في شعره تلـك الأغراض الموروثة لالتفاته إليه منـذ بداياتـه وتنويعه فيه ثم إجادته في معظم أنواعه؛ بمـا يدلل على سعة أفقه وتوقّد ذهنه وثراء خزينه، ناهيك باستجابته لكل طارف وتالد..

لكل بارقة وظاهرة، بلا تزمّت، ثم لكون هذا الشعر من أرق الفنون الأدبيـة وأوفرهـا حظاً بين جمهرة القرّاء؛ وأعمقها صـدىً فـي النبرات الإنسانية.

فـي شـعره وطنيـات وقوميـات.. وجدانيات وفلسفيات.. وصفيّات وإخوانيـات.. دينيّات ورثائيات..

بمعنى أنه نظم فـي أكثـر الأغـراض الشعرية؛ ضارباً في بعضها سهماً وافراً وفـي بعضها الآخر أقلّ من ذلك، تبعاً لطبيعة التجربة الشعورية التـي خاضـها أو اسـتجابة لفعـل الظروف الموضـوعية التـي أفـرزت هـذه المقطوعة أو تلك القصيدة لا لشيء لأنها صدى الشعور، والشعور تلقائي وغير انتقائي..

من الأفضل أن أستشهد بأبيـات مـن قصيدة (الأذن تعشق) هذه التي يذكّرني عنوانها بأشهر بيت للشاعر القديم المبدع بشار بن برد القائل:

يا قومُ أذنـــي لـــبعض الحـــيّ عاشـــقة

والأذن تعشـــق قبـــل العـــين أحيانـــا

بينما المحاسني يقول:

حُطّي على القلب ما قد شئتِ مـــن ولَـــه

فقـــد تمـــرّس بـــالآلام ماضـــيه

أنـــا الـــذي زحـــزح الأحـــزان مبســـمه

ولاح يضـــحك فـــي أقصـــى مباكيـــه

هذي الحيـــاة لهـــا وجهـــان فالتمســـي

عـــذراً لمحيـــاي فالآمـــال تبقيـــه

مـــا جـــفّ قلبـــي مـــن حـــبٍّ ولا ولـــع

رغـــم الســـنين التـــي بالبعـــد تطويـــه

يخضر عودي على نفـــح الغـــرام ومـــا

وجـــدي يـــذوب ولا تفنـــى غواديـــه

إذا كانت آلة التصوير تلتقط الصـورة، بما لها وعليها، فإن المحاسني الفنّان في بعض قصائده الوصفية لا يكتفي بالتقاط الصورة كما هي بل يتعـدّاها ليـؤثر التغلغـل فـي غـور (الصورة) بعقله الباطني، فيضفي عليهـا مـن ذاته المرهفة ويعبّر عنها بموهبته الخلاّقة بما يتكامل بها إطارها حتى لتتهادى لوحةً آسـرةً مجسدةً لا أروعَ منها ولا أمتع، وإذا أنت تحسّ بالبون.. بالفارق بين الصورة المعتادة وهـذا التصوير الشـعري المتميّـز المثيـر للتأمـل والتساؤل.. لنقرأ شيئاً من قصيدة (لبنان جنّـة المصطاف):

يا عاشق الســـحب هـــل يممـــت لبنانـــا

وهـــل شـــممتَ بـــه روحـــا وريحانـــا

روحي تطيف به في سفح جنته
وفي الأعالي فتروي فيَّ ظمآنا

إذا النسيم تثنّى خلته قبلاً
على الخدود تريك الريح ولهانا

وفي الينابيع ثلج كالفرات إذا
شربت منه قضيت العمر ريّانا

مدارج عند جنات معلّقة
أعنابها تترك الإنسان سكرانا

هكذا تتجسد قدرة المحاسني متألقةً ومنطلقةً في دقّة التصوير ورقة التعبير، على أن فن الوصف وإن صَعُبَ، فإنما يدخل في الأنواع الأدبية الأخرى ويعصي على غير قليل من الشعراء أن يملك زمامه، ويسلس له قياده، ناهيك بالناظم أو المستجدّ الذي يقصّر دونه.. ها هو ذا يقول في (نافورة جنيف) ما يكحّل العين جمالاً، وما يزيد البصيرة ثراء:

وقفت على (ليمان) يضحك بحرها
وقد أحدقتْ فيه صفوف المنازل

أمرآة جنّ نمنم الأفقُ وجهَها
كأسطورة أوفت على سحر بابل

أم القوم في زهو النعيم تمايلوا
يطوفون فيها بين شاد وهازل

ومطفرة للماء يعلو وثوبها
إلى الجو وسط البحر إبداع هائل

أنافورة تبغي السماء وعزفها
تهاوى فكرت كالجريح المناضل

يعكس ديوان المحاسني مبلغ ما جبل عليه من سماحة ووفاء، بحكم بيئته التي عاشها بمرارة وبمهمازٍ من ثقافته التي أحرزها بعصاميّة.

من هنا كانت له شبكة من الصلات الشخصية والفكرية بغير قليل من معاصريه ممن راسلهم وجالسهم.. نادمهم وبادلهم المودات والتحيات من أمثال الأمير مصطفى الشهابي، عباس محمود العقاد، أحمد حسن الزيات، شاكر الكرمي، عارف الزين، نظير زيتون، مصطفى جواد وغيرهم..

كذلك كان يضمر إعجاباً ويظهر اهتماما بالقدامى من الشعراء والأعلام كأبي الطيب المتنبي، وأبي فراس الحمداني، وأبي تمام، وديك الجن، زيادة على الرائدة المصرية هدى شعراوي.

ألا ما أصدقه قلباً، وما أنطقه عقلاً وهو يرثي إنساناً بوأه من ذاته منزلة رفيعة، إنساناً خليقاً بكل أسباب الوقار والثناء الذي لا مزيد عليه، ذلك هو الأمير مصطفى الشهابي، والعلاّمة المجمعيّ والسفير النادرة:

يا أمير البيان والفكر مهلا
لم تغادر فينا صديقاً وأهلا

ما هو الموت؟ إنه كغياب
طال أو سفرة تغادر وصلا

وخُلقنا لكي نموت ويبقى
بعدنا الذكر طاب أو ساء فعلا

أيهذا الرئيس عشتَ كريما
ولبست الحياة علماً.. ونبلا

ويفـــديك فـــي المجـــامع عهـــد
عبقـــري فيـــه عهـــدك قـــد تجلـــى

والمحاسني الذي غاب عنه أبوه، ولـــه من العمر عامان، ربّته أمّه الحنون إلـــى حـدّ الجنون، وأنشأته حتى أدرك مناه ومبتغاه.. من أجل هذا إذاً كان حبّه لأمه وتعلّقه بها وحسرته عليها، أمراً مفروغاً منه، فـــلا بـدّ أن يكـــون رثاؤه لها، وقد طواها وادي الموت، بمثل هذا المستوى، إن لم يكن أعلى منه:

هنـــا ترقـــد أمـــي بعـــد عمـــر
لـــم تمنـــع فيـــه مـــن صـفو الحيـــاة
أوصـــدت لـــي دربهـــا بالـــذكريات
أنشـــد اللقيـــا وأجـــرى مثـــل نهـــر
قلـــت للأحـــلام هبّـــي مـــن بعـــاد
لا ينـــام الحلـــم فـــي نـــوم العيـــون
صـــورة الأم بـــدت خلـــف جفـــوني
ليتهـــا تطلـــع طـــيّ الرقـــاد
بســـمة منـــك أنـــارت لـــي مصـــيري
فـــي وشـــاح أبـــيض الميعـــة لحـــت
تمســـحين الحـــزن عـــن جبهـــة أخـــيّ
ودوائـــي كنـــت فـــي يـــتم عســـير

كان المحاسني بباعـــث مـــن إيمانـــه ووجدانه، متعلقاً بوطنه سوريا وبقومه العَرَب، مغتبطاً بالانتماء إليهمـــا؛ والانضـــواء تحـــت خيمتهما، مشاركا في سرائهما وضرائهما، فقد حرص في إنتاجه الشعري على معالجة أهمّ ما كان يرتئيه حرّيا من شؤون وطنه، وشـجون قومه، وما تجري على أرضهما مـــن حـــوادث ومظاهر، وما يتعاقب عليهمـــا مـــن رجـــالات وأعلام ثم ما يتناقل الرأي العام عَبرْ ذلك كلـــه من أصداء وردود أفعال، وخير تمثيل لهذا مـــا ساقه من قصائد تآزرت فيها المعاني والمباني في بوتقة الفن، وتتناغم على صعيدها الألـــوان والظلال، ويتفاعل معها الواقع والخيال.. قصائد هي (مهرجان الجلاء) (الجندي) (نهر الـــدماء) (إلى البطل الشهيد يوسف العظمـــة) (عـــرس العروبة) (مصر) (فتاة الجزائر) (لبنان والشام) (بغداد) وفيها يقول ما فاضـــتْ بـــه قريحتـــه وانطلقت فيه عقيرته:

يأســـى الفـــؤاد وقـــد يزيـــد عنـــادا
حتـــى أيمّـــم بـــالهوى بغـــدادا..
حلـــم وراء الجفـــن بـــت أعيـــده
ونســـجت فيـــه علـــى البعـــاد ودادا
أأجـــيء دارات الخلافـــة مثلمـــا
كانـــت تفـــيض علـــى الـــدنى أمجـــادا
هـــارون فـــي عليائهـــا وبنـــوده
وجنـــوده تســـع المـــدى إعـــدادا
أم أغتـــدي وعلـــى مشـــارف عزّهـــا
المـــأمون يملؤهـــا حجـــاً ورشـــادا
وبســـاحها تحـــت القبـــاب مجـــالس
شـــعت جمـــالاً وازدهـــت إنشـــادا
تتكســـر الأضـــواء فـــي أجوائهـــا
من فوق مَـــنْ ملكـــوا الزمـــان قيـــادا
وتـــدور راقصـــةً تمـــوج بـــدلها
فتزلـــزل الأوتـــار فـــي والأعـــوادا

إن هذا القصـــيدة النابضـــة بـــالجلال والانفعال وإن لم توثّق في الديوان من حيـــث

نظمها زماناً، وترويجها مكاناً، قالها المحاسني - كما أحسب - بمناسبة انعقاد مؤتمر الأدباء العرب الخامس، ومهرجان الشعر السادس في شباط عام ١٩٦٥ ببغداد، والذي لم يستطع حضوره لسبب أو لآخر، بينما حضرت زوجته الباحثة القاصة وداد سكاكيني، وكانت الفرصة سانحةً لأن يتصل بيني وبينها سبب التعارف والتآلف..

ولا محيص من الزعم بعد هذا كله أن في المفردة الأخيرة (ودادا) من عجز البيت الثاني، تورية، لا تخفى على القارئ اللبيب.

يقين لا شك فيه أن المحاسني أعار التفاتاً واضحاً للشعر الديني الذي تفوّق فيه، وتوسّع مستغرقاً في بحرانه إلى جانب تعمّقه مستوعباً كلَّ ما يمتّ بصلةٍ إلى الإسلام كدين ودولة.. كحضارة وأصالة، من حيث أصوله وحقائقه ثم مؤثراته وإفرازاته، قديماً وحديثاً، ما دارت الدنيا ودالت، على نحوٍ يفصح معه عن ما يتميز به الشاعر من حرارة في اليقين.. وسداد في الرؤية.. ورهافة في الحسّ، وتلك قصائده العديدة ناطقة وصادقة، ثم شاهدة على ما يرى ويسوق..

قال وكله خشوع وخضوع في (الصلاة) وهل هي إلاّ عمادُ الأركان لما فيها من معانٍ ومقاصد، ناهيك بالطّهر واليُسر:

لك اللهم قلبي في الصلاة
إذا شغلتْهُ عنك مني الحياة
وقفت وقبلتي مهوى لروحي
فطفت هناك في أرض البداة

ديار الوحي تجمعنا نفوسا
وإن تكن الجُسومُ على شتات
قرأتَ الحمد والإخلاص حتى
ركعتُ رضىً لربّ الكائنات
وواليتُ السجود فصار أنفي
وقد الرغام من العتاة
فسبحان الذي نعنو إليه
ولو كنّا طواغيت الطغاة
شهدت بوحدة الرحمن لمّا
بعثتُ تحيتي في الطيّبات

والمحاسني كإنسان، مؤمن إذا راوده هاجس أو استبدّ به قلق لاذ بالله العلي القدير، متضرعاً إليه باستكانة، ليزيل غشاوته، مستنجداً إياه ليطمئن قلبهُ، وتهدأ حالُه، مستغفراً بإخلاص يعمره سكون الروح، وهدوء النفس، وليزداد قناعة وطهارة:

يا ربّ مَنْ غيرك عون الحزين
في شدة الشكوى وطول الأنين
العين قد بيضها دمعُها
والغم تدنو منه كأس المنون
والقلب أضناه احتمال الأسى
فخفقه يحتشه للسكون
ما أفدح اللوعة في يافع
مستعبر ليس له مَنْ يعين
يا ليت كل الخطب في دهمه
يمضي به والليل خابي العيون



الشاعر المتهم باللون الثامن

شعر: غسان الشيحاوي

للعالم سبعة ألوان....
أمّا اللون الثامن فقد سرقه شاعر
رموه بالرصاص...
لأنه عشق اللون الثامن
رموه بالرصاص...
لأنه سرق اللون الثامن
ثلاث أفاع تتجه إليه..
ثلاث أفاعٍ تتقاطر سمّاً
ثلاث أفاعٍ تبغي عينيه
لكن العينَ مازالت مفتوحةً
لتستوعب ألوان الشمس
البارحة قتلوهُ
لأنه سرق خبزه الممزوج
باللون الثامن
أمّا اليوم...
فالبنادق مصوّبةُ
نحو أطفاله وزوجته
حاذروا أحبّائي حاذروا
لا تأكلوا خبزكم عندما يكون ممزوجاً
باللون الثامن
حاذروا أرجوكم حاذروا
لأن البنادق مصوّبة
نحو القلب.

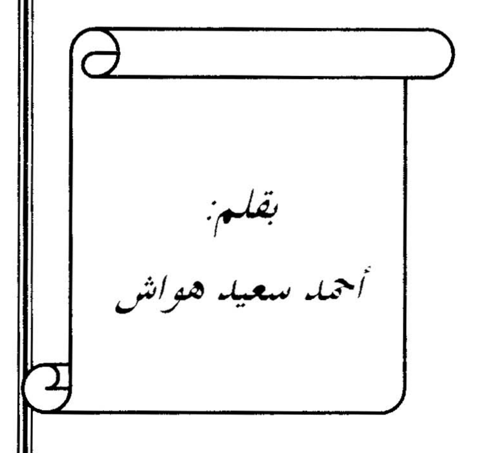




عبد المجيد عرفة

شاعر

للوطن وللأمة



يقول الأديب الدكتور عبد اللطيف اليونس في مقدمته الرصينة لمجموعة الشاعر عبد المجيد عرفة (رحيل إلى مرافئ الحب) الصادرة عام ١٩٩٤: "شعر وجداني.. تمليه العاطفة، وتغذيه الثقافة، ويزوقه الخيال".

كما يقول: "وشاعرنا عبد المجيد عرفة، جريء، باقتحام مواضيعه ومعالجتها، ثم الوقوف عندها، حينما تفرض ذلك حرارة الشاعرية، وجذوتها الملتهبة".

وهذا يدل دلالة واضحة على ما وهبه الله تعالى للشاعر عبد المجيد من ملكة شعرية أصيلة، وفرها بالقراءة الجادة لأمهات الكتب العربية قديمها وحديثها في يفاعته، فاجتمعت لديه الموهبة والثقافة وكان الإبداع الذي تمثل بإصداراته المميزة:

- رحيل إلى مرافئ الحب - دمشق ١٩٩٤.
- أغنيات لبلادي - دمشق ١٩٩٥.
- همس البلابل - دمشق ١٩٩٧.
- دموع وآمال - حماة ٢٠٠٣.

ومن قراءة سريعة لهذه المجموعة الشعرية نستطيع القول بأننا أمام شاعر جمع إلى المقدرة الشعرية فيضاً من المشاعر الأصيلة الثرة الصافية النبع، إنه شعر وجداني كما قال الدكتور عبد اللطيف اليونس، جياش العاطفة، عذب اللفظ، تظهر موسيقاه من خلال مفرداته الشعرية راقصة غضّة نضرة.. ويبدو ذلك واضحاً في مجمل قصائده.

ومن مطالعة مجموعاته الشعرية واستعراض شعره الوطني والقومي، نرى أن

الشاعر عبد المجيد عرفة واكب أحداث وطنه وأمته العربية الجسام، وعاش آمالهما وآلامهما.. وانعكس ذلك في شعره وفيه تظهر حرارة الشاعرية وجذوتها الملتهبة، نستعرض بعضها..

ولقد عبَّرَ الشاعر عبد المجيد عرفة أحسن تعبير عن حبه لوطنه في افتتاحية ديوانه (أغنيات لبلادي) حيث قال:

غنيت أرضي على أوتار شرياني
فكل قلب تغنّى فيه ألحاني
وكل من هتفوا بالحب قد نهلوا
تلك الصبابة من حبي لأوطاني

ومن الطبيعي أن يكون حب الشاعر لمسقط رأسه، مدينة (حماة)، وقد غنَّى حُبه لحماة في كثير من قصائده وفاءً وحباً لمدينة أبي الفداء..

ومن قصيدته (حماة يا بلدي) التي ألقاها في مهرجان الشعر في المركز الثقافي بحماة في نيسان سنة ١٩٩٤ والتي بلغ عدد أبياتها أكثر من خمسين بيتاً يهيم الشاعر فيها حباً بمدينته في شعر وجداني مؤثر الصدق عاطفة الشاعر واتقاد شاعريته إذ قال:

حماة يا مهد أحلامي وأغنيتي
ويا طفولة عهدي بالهوى وغدي
يا ذكرياتي ويا أبيات ملحمتي
يا مسرحاً لهناء العيش والرغد

ومن ثم يستعرض الشاعر عبد المجيد عرفة ذكرياته الماضية عن مدينته ذاكراً بعض معالمها وخاصة (العاصي) إذ قال:

حشدت في خلدي الذكرى وجئت بها
فبددت ذكرياتي رهبة البلد
وعدتُ للنهر أستجدي مناهله
أبثه وجد مفؤود لمفتئد
فكم مشيت بدرب (الديدبان) ضحى
والبيلسان على جنبيه كالرأد
وكم سبحت (بباب النهر) في صغري
عُريانَ قد عريت نفسي من العقد
وذي النواعير كم عانقتها فرحاً
وكم تسلقتها في خفة ودد

وشاعرنا عبد المجيد عرفة قارئ نهمٌ ولا سيما لسيرة مؤرخي حماة وشعرائها القدامى أمثال: ياقوت الحموي، وابن حجة الحموي فقال:

ماذا سأذكر من أمجاد مملكة
غنَّى لها كلّ موهوب ومجتهد
وشى مطارفها ياقوتُ من زمن
فكان ياقوته في صدرها النهد
ولابنِ حجَّة وصفٌ في فرائده
سما وفاق الذي قد قيل في الخرد

وهل يجهلُ أحدٌ مؤرخ حماة الكبير وملكها والتي سميت حماة باسمه (أبو الفداء) فقال:

ولو وصفت فداءً كان رائده
أبو الفداء.. ولم أطنب ولم أزد
ملكٌ له الدهر قد أزجى مطارفه
يؤرخ المجد من أيامه الغُرُد
رعى العلوم، ولم يشغله عن أدبٍ
ملكٌ. ولم يستكن يوماً ولم يمد

وأن حب الشاعر لمدينته (حماة) يتبعه حب لأعلامها وشعرائها المعاصرين أمثال الطبيب الشاعر وجيه البارودي المعروف جيداً في الأوساط الطبية والأدبية على مستوى الوطن العربي، فقال الشاعر عبد المجيد عرفة من قصيدة (الدكتور وجيه البارودي الطبيب الشاعر) كان قد ألقاها في المركز الثقافي بحماة بتاريخ ٢٩/ ١٢/ ١٩٩٤ مشيداً بشعر الدكتور وجيه البارودي:

هذا وجيهٌ. وهذا شعرُهُ سُبُلٌ
للعاشقين إذا ضلوا عن السُبُل
تيهي حماةُ به فخراً ولا عجبٌ
إذا فخرت بفرسان الهوى الأول

ثم يشير الشاعر إلى مكانة الدكتور الشاعر وجيه البارودي عند أهل حماة وما قدّمه لهم من خدمات فقال:

داوى حماة بكي الجرح مُتَئداً
وما قلاها على كرهٍ ولا وجل
أحبها، ورعاها في الفؤاد كما
ترعى النواعير ذكراها من الأزل

وأن الشاعر عبد المجيد عرفة محب لكل مدينة في وطنه، ولكل شخصية خيِّرة للوطن والأمة، ها هو يشيد بدمشق عاصمة الأمويين، عاصمة سورية العربية فقال من قصيدة (نقش على أبواب دمشق):

دمشقُ... يا بهجةَ الدنيا وفتنتَها
يا من لها ينتمي الإخلاصُ والشَّرفُ
مهدَ الحضارات إني شاعرٌ كلِفٌ
وهل يغرِّدُ إلا الشاعرُ الكلِفُ
غنيتُ مجدَكِ صدَّاحاً على وترٍ
على نُغيماتِهِ الأجدادُ كم عزفوا
ورتَّلوا مثلما رتَّلتُ أغنيةً
تحكي مآثِرَهمْ فخراً بما نصفوا

أجل إنها دمشق ذات التاريخ الوضاء، أقدم مدينة في التاريخ، التي جمعت بين عراقة الماضي وجلاله، وتقدم العصر وبهائه، وإليها تتجه أنظار العرب والعالم منذ القديم حتى عصرنا الحاضر..

ومن أجدر بالغناء من (يوم الجلاء) هذا العيد الوطني الكبير الذي يحتفل به القطر العربي السوري سنوياً في السابع عشر من

شهر نيسان، لما له من مقام سام في نفوس أبناء سورية والعرب، فقال الشاعر عبد المجيد عرفة مشيداً بهذا اليوم الأغر وبالشهيد (يوسف العظمة) أمثولة البطولة والفداء:

يوم الجلاء وقد غدا مثلاً
للطامحين لمجده شغفا
يومٌ. شهيدُ الأرض أرخه
بدمٍ على فيحائها نزفا
قد خطَّ (يوسفُ) أسطراً بدأت
من ميسلون وروَّت الصحفا
ضحّى فداءً كي يعلمنا
من بذله وفدائِه الأنفا

ولم تفت الشاعر فرصة الاشتراك في تكريم الأديب الشاعر الدكتور بديع حقي الذي جرى في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق بتاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٩٤ عبَّر فيه عن حبه للمكرّم، ذاكراً عناوين إصداراته في شعر جميل بدون تكلف، لفتت نظر المحتفى به فأشاد بشاعرية الشاعر المبدع، إذ قال الشاعر عبد المجيد:

(سحرٌ) وبستان (البديع) كعبقرٍ
وكأن (هاروتاً) عليه القيِّمْ
(بترابه المحزون) قد غرست له
الأمُ الرؤوم (شجيرة) لا تهرم
فتجسَّدَ الوطن الحبيب بغرسها
وسما (بديعٌ) تلتقيه الأنجمْ
في موطن أحجاره قد أورقت
وبظلّها، يتفيا الموسّمْ
هو (جمرة الحرف) الأصيل توقدا
وهو (خمرة النغم) الحزين يدمدمْ

وقد علَّق الأديب بديع حقي على ذلك إذ قال: "وقد أثارت قصيدته إعجابي، بطواعية كلماته وقوافيه لعناوين مؤلفاته كلّها، إذ اتسق له أن يعدّدها ويستجليها كلّها، ويسلكها في سمط قلادة واحدة تنتظم قصيدته، مما يشي بقدرة متميزة على استجلاء المعاني التي تتسم في خاطره ليستجردها إلى قصيدته، كما لو أن ألفاظها مقدودة على قدر معانيها".

ولقد تنبه الشاعر الكبير حامد حسن لشاعرية الشاعر عبد المجيد عرفة وذلك بعد أن قرأ ديواني الشاعر عرف (رحيل إلى مرافئ الحب) و(أغنيات لبلادي) فعبّر عن حبه وتقديره للشاعر عبد المجيد وشعره الرائع وذلك عبر قصيدة (آمنت بالشعر) التي نشرتها مجلة الثقافة، فقال منها:

من دغدغ الورد والنسرين والحبقا
ورشهنَّ على أشعاره عبقا؟؟
يا ساكب الشعر مشبوب اللظى، عطرا
وسابقاً يتحدّى (بعض) من سبقا

عصرتَ صهباءهُ من ألف دالية

بوركتَ مصطحباً فيها، ومغتبقا

وتوهجتْ في خوابي حانها ألقا

من قال: إن الخوابي تحبس الألقا؟؟

إنها شهادة شاعر كبير بشاعرية الشاعر المجيد، إنه وسام يرصع جبين الشاعر عبد المجيد، عبّر عنه بشكر وشعر جميل بقصيدة (بطاقة شكر) من نفس البحر والقافية فقال:

عطرت شعري بند منك قد عبقا

يا شاعراً أسكر الأوراد والحبقا

وصوّح الزهر في روضي. فكنت له

سقيا. وكم كان يرجو الغيث والغدقا

منحتني فوق ما أرجوه من علم

وشاعر شغل الدنيا وما طفقا

لقد تألق الشاعران بشعرهما، فكان الجميل ورد الجميل مما أثار حساسية الحساد، فقال الشاعر عبد المجيد مخاطباً الشاعر حامد حسن:

إن ظنَّ غيري ما قد قلته ملقاً

فقد عهدناك تأبى الزيف والملقا

وشاعرنا عبد المجيد عرفة وفي لزملاء الحرف والقافية، وكان شديد الحرص على الاشتراك في حفلات التأبين للراحلين من الشعراء والأدباء، نذكر منهم الفقيد الشاعر المبدع نديم محمد حيث أقيم له حفل تأبيني كبير في المركز الثقافي في طرطوس برعاية السيد رئيس الجمهورية، وقد مثله السيد وزير الإعلام وبتكليف من وزارة الإعلام واتحاد الكتاب العرب بتاريخ ٢٨/ ٩/ ١٩٩٤، وقد ألقى الشاعر عبد المجيد عرفة قصيدة رائعة معبّرة (في رثاء الشاعر نديم محمد) الذي عرف بعصاميته وبؤسه وفقره وعروبته وشاعريته وإلى ذلك أشار الشاعر المجيد في افتتاحية قصيدة العصماء إذ قال:

شاعر البؤس والأسى والحنين

وأليف الشقاء عبر السنين

يا حليف الآلام والحزن خمر

من دواليك في كؤوس الخريف

يا نديم الضنى ولحن المراثي

وجليس المحزون في التأبين

كيف أرثيك يا نديم وما في

خافقي واللسان غيرُ الأنين

كما اشترك الشاعر عبد المجيد عرفة في الحفل التأبيني الكبير الذي أقيم للمؤرخ والأديب والكبير الدكتور شاكر مصطفى في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق في مساء يوم ٩/ ٩/ ١٩٩٧، الفقيد شخصية وطنية وتاريخية وأدبية كبرى معروفة لدى العالم العربي، وقد تخرجت على يديه أجيال من الناشئة العربية، كما تشهد له مؤلفاته التاريخية القيمة بالريادة

في التاريخ والأدب والوطنية والقومية، وقد أشار الشاعر عبد المجيد عرفة لذلك إذ قال:

فيا (شاكراً) أغنى التراث بديعه
ويا (مصطفى) من صفوة لم تثلّم
ترحلت في ركب العلوم مجاهداً
لتكشف سِتْرَ الشكّ عن كل مبهم
ولم تخشَ في قول الحقيقة لائماً
ولا حقدَ موتورٍ ولا متحكّم
ومن كتب التاريخ بالحق صادقاً
فترياقه يحميه من سُمٍّ أرقم
أبيت انتماءً في الحياة لموطنٍ
وعشت إلى كل العروبة تنتمي
كذا الفكر كالأطيار ويبقى محلقاً
ولا يحبس الفكر الطليق بقمقم

وكان الهم القومي هاجس الشاعر عبد المجيد عرفة، لحبه لوطنه وأمته، لما آل إليه حال الأمة العربية من تشرذم وتخاذل واللحاق بالأجنبي الذي لا يريد للأمة العربية الخير، ها هو يوجه رسالة مفتوحة إلى سيف الله المسلول خالد بن الوليد يشكو فيها حال الأمة العربية:

يا بن الوليد وفي اليرموك مضطهد
خلّفته شامخا بالأمس في القمم
نصرته من جيوش البغي من زمن
واليوم قد عاد يشكو البغي في ألم
نادى الولاة بصوت بُحَّ من ألمٍ
فعاد رَجعُ الصدى من هوَّة العدم
فما استجاب له من ناصرٍ أحد
ولا انتحى سيد عوناً لمنظلم
كأن في سمعهم وقراً فلا أحدٌ
أصغى ليسمع صوت القدس والحرم
فكأن أسيافهم في الغمد قد صدئتْ
وكل نخوتهم ناءت ولم تقم

وفي قصيدة (البط.. والمبعدون) يندد الشاعر عبد المجيد عرفة بطرد إسرائيل لثلاثمائة مواطن عربي وحصرهم في خيام بمرج الزهور تحت الثلج، ولم يحرك العالم ضميره، بل وجه إعلامه للبط والدلفين اللذين نفقا في كارثة بيئية بتاريخ ٥/ ١/ ١٩٩٣ فقال:

يا ضمير الناس هل من نخوة
تتصدى بسعير الغضب؟
أنقذوا الدلفين والبط الذي
لوثوه بسموم الجرب
واحشدوا كل القوى في دعمه
إن شكا من عطش أو سغب

سخّروا الإعلام في نصرته
وتغاضوا عن خطوب العرب
أي خطب من مئات أبعدوا
عن ديار الأهل أو أرض النبي

ثم يندد الشاعر بمجلس الأمن الذي تعامى عن هذا الحدث المنكر فقال:

مجلس الأمن وعى الحق كما
نص شرع الغاب أو شرعُ السبي
فتصدى لضعيف سلبوا
حقه كيف اشتكى من تعب؟
إن للقاهر حقاً ثابتاً
كيف بالمقهور لم يستجب؟

وقد آلم الشاعر عبد المجيد عرفة كما آلم كل عربي ما آل إليه وضع بعض أبناء الأمة العربية من تقبل للذل والمهانة من أذل خلق الله، بني صهيون، الذين لفظتهم دول العالم، وقد تطاولوا على أبناء شعب مصر العربية متمثلين بـ (ليفي) ويعرف باسم فائق مصراتي الذي حكم عليه بالسجن ثلاث سنوات مع وقف التنفيذ لإهانته المحكمة، وترحيله مع شبكة التجسس التي يرأسها على طائرة العال الإسرائيلية إلى تل أبيب بعد أربع ساعات من الحكم، وكانت المهزلة والإهانة والذل في قاعة المحكمة تحت سمع ومرأى وكالات الأنباء العالمية صورة صوتا، فندد الشاعر عبد المجيد بهذه المهزلة فقال من قصيدة (ليفي):

ليفي يمرّغكم بالوحل يا عربُ
ما ذاك نسجُ خيالٍ حاكه الكذب
ليفي يردّ عليكم في محاكمكم
رداً تعرَّق منه السادة النجب
وراح ينتفض الجاسوس يمطركم
من الشتائم ما استحيا له الأدب

ولئن قسا الشاعر عبد المجيد على أبناء قومه العرب بالقول، فما ذلك إلاَّ لحبه لهم، والغيرة عليهم ومما آلمه من تصرفات الأذلاء اليهود نحوهم فقال:

قسوت بالقول ضنا في كرامتكم
وليس في القلب إلاَّ حبكم يجب
ولن ألام بشعرٍ ضجَّ في خلدي
فإنَّ ما قلت من شعر له سبب
قد آلمتني جراح الذل في وطن
كان الزمان له بالفخر ينجذب
جرح العروبة جرحي مزمنٌ – نتنٌ
بالكي أشفيه إن أعياني السبب

وبعد تلك إطلالة سريعة على شعر الشاعر عبد المجيد عرفة، أختتمها بما قاله الشاعر الأديب مدحة عكاش عنه: ".. وأي صفاء أحلى وأجمل من تلك المشاعر القومية والاجتماعية والخاصة التي نجدها في شعر الشاعر عبد المجيد عرفة، بل وأي نقاء أسمى وأرفع من تلك التعابير المشرقة المنسابة في أبيات أقل ما يقال فيها إنها حديث القلوب للقلوب..". نعم وحديثنا من القلب للقلب.




موسيقا ثلاثية الأبعاد

شعر: ريجينا ملوك

تخالطني بتاريخي..
ويعبق ضمن أوردتي شذى من باعوا مفاتنهم
تناثرني بنيراني..
وترسم بين أروقتي صدى من خانوا مناسكهم.

*   *   *

أنا منٍ رحلةٍ صغرى... رفيفُ العينِ يقتلني
أعرّجُ عندَ سقفٍ من تراويحٍ...
تزوّرني محابركم ولا أدري..
فعشقُ النارِ... عشقُ النارِ أغواني

*   *   *

أنا المشحوذُ من ضلعٍ... ينوءُ بسقْطِ لذّاتي
أنا من عروةٍ كبرى.. تُحيْكُ إزارَ إخواني
ومهما غاصت الركبُ... ستبقى وجهَتي الأولى
عيون الشمسِ ترعاك... لخيطٍ بتَّ محرقَهُ

*   *   *

تخالطني بتاريخي وأعتذرُ
أنا ما عدتُ جارية...
وما عادت سنون الذلّ ترضي صحوَ أغنيتي
تعجُ بيَ البوادي مذ خلعتُ عجافَ الليل
عن ظهري
خيولُ الريح تعرفني... كتلكَ التلّة الخجلى...
أذاكرُ ملحَ ذاكرتي...
ضباعُ الحبِّ تسقيني مخاوفها
وهلْ من غانيةٍ ثكلى... تخالطني بتاريخي

*   *   *







سؤالٌ ينتشي ذاتي...
لمَ الأحلامُ ترسمني بمقصلةٍ؟!.
تعاقِرُ أمسَ مارقتي....
سراب المحنة الأولى يعانقني
ليرضي عِمقَ ماجنتي.
لكم ما عِشْتُ من هزلي...
وعند سياج مكتبتي تناثرتم..
هنا عرجونُ شارعكم...
وذاكَ الضوءُ منسيٌّ على أهدابكم...
يزْكِي تَبَاريحي
تُرى هدأت صواريكم؟؟!!
وماتت غبرةُ الأجرامِ في أكوانكم خَدَراً؟
عتيقٌ صَلْبُكم الأزليْ...
مأواكم عِراكُ الخاسِرِ الأكبر...
ويضنيني مآلُ الصمتِ للنسيان

* * *

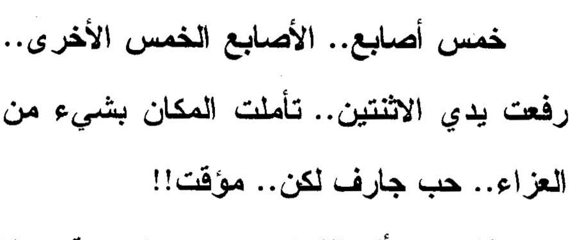
أُسوِّفُ مهرباً يبثُّ الكرى عنباً على أسرّة...
على عشقٍ يعانقُ صَبوَتي ألْفاً..
على خصريِ... وعنقِ هرّة
أنا أغسل الضبابَ بغار...
أرى قراصنةَ البحيرةِ...عرسَ تأبيني...
ولا..لا أرغبُ الذكرى...
لذا.. لا.. لا تخالطني بتاريخي




قصة

غربة هوية

بقلم:
هيمى المفتي



خمس أصابع.. الأصابع الخمس الأخرى.. رفعت يدي الاثنتين.. تأملت المكان بشيء من العزاء.. حب جارف لكن.. مؤقت!!

غادرت وألم الفراق يعتصرني.. قد لا أعود ثانية لعام أو عامين أو أكثر، إن لم أكن بحاجة إلى ورقة رسمية من قيد النفوس..

طفولتي في المدينة البعيدة.. الانتقال إلى أخرى.. ثم السنوات الطويلة في العاصمة، لم تمنحني شعوراً بالانتماء.. وهنا - حيث أنتمي - ضمني شعور عميق بالغربة لحظة وصولي..

مسقط رأس والدي وجدي.. الذكريات التي لم أعشها أتخيلها من خلال أحاديث أبي الممزوجة بالحب القديم، وألم اقتلاع الجذور، والشوق المدفون تحت السنوات الطويلة في الغربة..

هذا منزل الجد المهجور، وفي ذلك السيباط مضافته.. وهذه الأرض هي إرث العائلة التي طالما قطف منها أبي حبات الكرز والتوت.. هنا كان أبي يلعب.. هنا وقع فحصل على ذلك الجرح الذي نراه في جبهته حتى اليوم.. تلك هي مدرسته.. في ذلك الحقل أمضى يومه حين هرب من المدرسة..

ذكريات.. ذكريات.. شعرت وكأني أعيشها.. ثم.. جرفني الحنين!!

خمس أصابع على لوح زجاجي مغطى بطبقة سميكة من الحبر الأسود.. بصمات الأصابع على ورقة بيضاء.. ثم بصمات الكفين..

محاطة بعبارات الترحيب من أشخاص أنتمي لهم بصلة قربى لا أعرفها.. محاطة بالحب.. غادرت وأنا أحمل بطاقة هويتي الجديدة.. بيان القيد، ورقمي كمواطنة يوحدني بكل أهالي المنطقة التي أنتمي لها بالإرث والاسم والذكريات التي لم أعشها.. بالحب الجارف لكن المؤقت.. وبالنسيان الطويل الطويل..

كنت أدرك أني سأعود إلى العاصمة، وسيبقى المكان هنا.. سأنسى.. وسوف ينسى..

تأملت الشبابيك.. الأبواب.. الجدران المدهونة حديثاً بلون شاحب.. هي كلها جزء مني.. سأتركه للنسيان.. ولن أعود قريباً بالتأكيد..

خمس أصابع على الحائط.. الأصابع الخمس الأخرى.. رفعت يدي الاثنتين.. تأملت الآثار المتروكة برضا..

غادرت المكان الممحي من الذاكرة وألم الفراق يعتصرني.. قد لا أزوره ثانية لعام أو عامين.. أو أكثر.. نظرة أخيرة إلى أصابعي.. أحفظ شكلها.. على الأقل، تركتها هنا.. وستشهد دائماً بانتمائي..

أعود بعد عامين.. تختلط في ذاكرتي الصور.. أرى بينها صورة أبي الذي لم يعد موجوداً.. ألوذ بذكرياته لكنها لا تسعفني.. تضيع المدرسة.. لا أتعرف على منزل الجد أو مضافته.. أين بستان الكرز؟.. يحيط الهواء البارد بجسدي.. أشعر بالغربة من جديد..

لا.. لقد تركت أصابعي هنا، وستشهد أني أنتمي إلى هذا المكان، وأني جزء منه..

هنا؟.. أم هنا؟.. يصدمني المكان..

على الحائط الذي كان قبل عامين نظيفاً إلا مني، خليط من الأصابع الكثيرة الكثيرة التي لا تعرف أصحابها، ولا تستطيع أن تشهد بانتماء أي منهم..

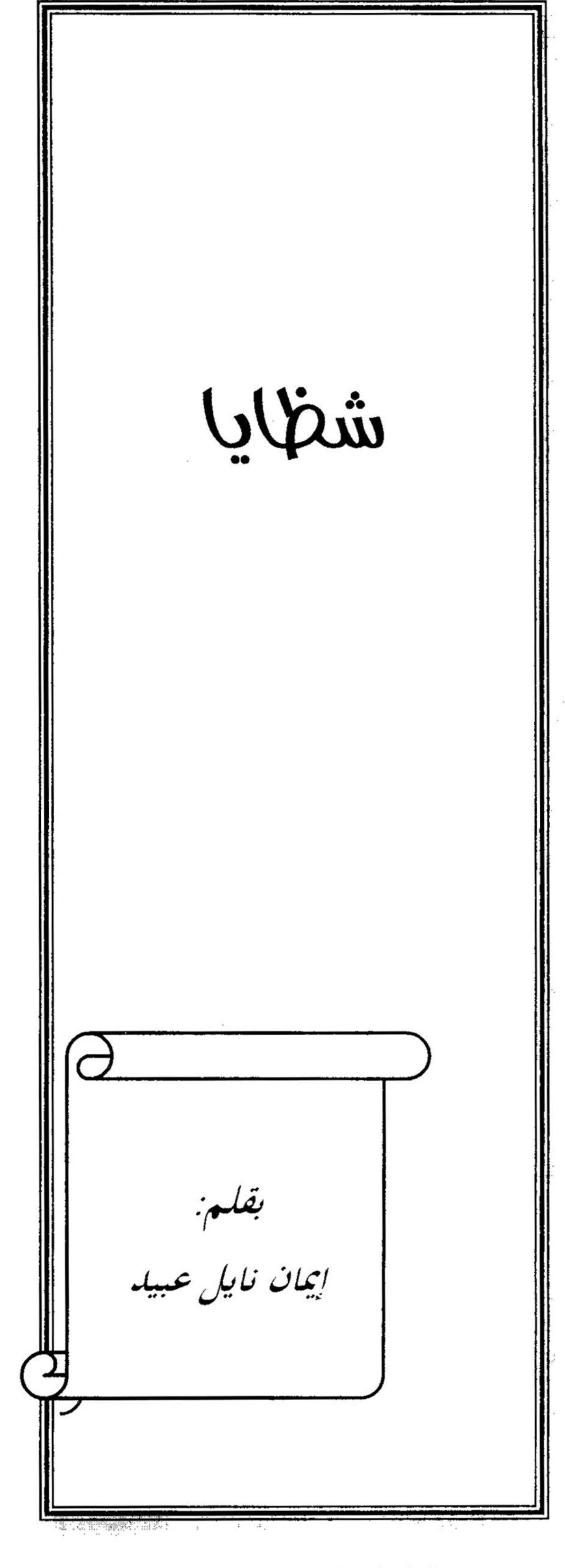


لعلّك لا تعلمين..

شعر: خالد سرحان الفهد

أيـــا شـــامُ وجهُـــكِ لوحـــةُ مرمـــرْ
تنهّـــدتِ ثـــم تنفســـتِ عنـــبرْ
فأغنيـــةُ للنســـيمِ.. تعالَـــتْ
تُغـــازلُ زهـــراً ومـــاءً مُعَطَّـــرْ
ومـــن تُـــرب أرضـــكِ تِـــبرٌ يشـــعُّ
ومـــن صـــخرها سلســـبيلٌ تفجَّـــر
أنـــا قلـــتُ: يـــا شـــامُ وصـــلك في العشـــ
ـــقِ، ألشـــامُ قالـــت: تصـــبّرْ
وهـــل مـــرّ غـــيمٌ بحســـنكِ يـــا
أمويّـــةُ إلاَّ وأمطـــرْ..!
لعلـــكِ لا تعلمـــين بـــأنّي
أنـــادمُ عينيـــكِ لـــيلاً فأســـكرْ
لعلـــك لا تعلمـــين بـــأني
ســـوى كحـــل عينيـــك لا أتـــذكرْ
لعلـــك لا تعلمـــين بـــأني
حيـــاةً بـــدونكِ لا أتصـــوّر
أيـــا شـــامُ كيـــف رآك الفـــؤادُ!
كمـــن كـــان أعمـــى وأبصـــرْ
فمـــا مُـــدرِكٌ أبـــداً إذْ رأيتُـــكِ
كيـــف أردّدُ: ألله أكـــبرْ!



تهمس لي أهداب الياسمين المتعمشق على أسوار الشارع العتيق: تمتعي بشذا رفيف أجفاني.. غير أني أتجاهلها كي لا أضطر لسرقتها من ركنها الذي تزينه...!

وسقطت مني آهةٌ شاتمةٌ مع الحجر الذي رميته في النهر ألماً وغضباً.. ولم أشعر إلا ودموعي تتسابق.. ترفد ماءه.. لأن رميتي قد كسرت وجه القمر الذي ارتسم باسماً على صفحة الماء..!

أن تتمكّن من أكل اللحوم بوفرة.. فهذا ترفٌ يسعى إليه الإنسان..
أن تقتصر على أكل الخضر فهذا نظامٌ غذائيٌّ ناجعٌ لإطالة العمر يطمح إليه الإنسان..
أما أن تعتاد على أكل لحم أخيك فأنت اللا إنسان..!!

الحبُّ وفاقٌ روحيٌّ تتسامى فيه المشاعر الصّادقة عن حدود المادّة..!

اللّيل المبحوح يستيقظ بنشاط وثّاب عندما نستعدّ للنوم ويظلّ ينادي: أمّا من ساهرين؟!
بلى.. إنهم في علب الليل المحصّنة الجدران.. لن يسمعوك.. كفاك نداءً وبحّةً..!

لا تكن نباتاً طفيلياً لا يعيش على حساب غيره فحسب بل ويسلبه حقّه في الحياة..!

أنت تحبّه.. وهو يحبّك.. لكن كلٌّ بطريقته.. فكيف تلتقيان؟! المحافظة على هذا الحب إذاً بألاّ تلتقيا..!

تابعت الرّكض وراء حلمٍ فرّ من بين تلافيف دماغي الصغير.. وعندما لحقت به وجدته قد افترش بساط الحياة واتّكأ على صخرة الأيّام منهكاً لكثرة ما حاول أن يتحقّق.. فما أفلح..!

هل توقّف الجدول عن المسير..؟ بالرّغم من رمينا له بالحجارة..!

في قلوب الأمّهات تُبذر أحلام الطفولة.. ثم تُروى بدمائهن ورذاذ دموعهن.. وتُشذّب بأيديهن الطاهرةِ ودعواتهن الصادقة.. ثم تقدَّم.. على كفِّ القدر..!

أُصافحك بوداد..فتضغط على أصابعي بخبثٍ..!

خجلت من نفسي لأني أكلت البرتقالة كلَّها.. ولم أحسب حساباً لمُشْته قد يأتي بعد حين..!

تفرش الأشجار ظلالها لنا بساطاً مريحاً.. ويعلو همسٍ أوراقها ليعزف لنا أنشودة الحفيف الأولى.. لكنّنا عند انتهاء استراحتنا في فيئها نكافئها بقطع أغصانها.. لتكون قرابين لألسنة اللهب التي نستمتع بمشاهدة رقصتها الجهنمية.. وكأننا ما ارتكبنا جريمةً في حق من أسدى لنا المعروف..!

وتقزّمت صورة ذاك العملاق أمامي بحجمي الصغير...

وانهار نصف القرن الذي زركشه بالبشاشة والطيبة والخلق الكريم.. وتقزّم.. عندما تلفّظ محاولاً استفزازي أن أمّه دجّالةٌ فكيف أصبر على التّعامل معها.. قزماً أضحى أمام ناظريَّ.. فمن يطلق هذه الصفات على أمه التي تزحف نحو عقدها التاسع ما هو بالإنسان القويم..!

لا تستغث بحوريّة البحر.. فهي مشغولةٌ عنك بالبحث عن أميرها الأزليِّ..!

القلب يرفع صواريه ويستعدُّ للرحيل.. يحمل أطنان المحبة والإيثار والإخلاص لكل من حوله.. عجباً لك أيها القلب وأنت محمّلٌ بكل هذا ألا تخشى الغرق..؟!

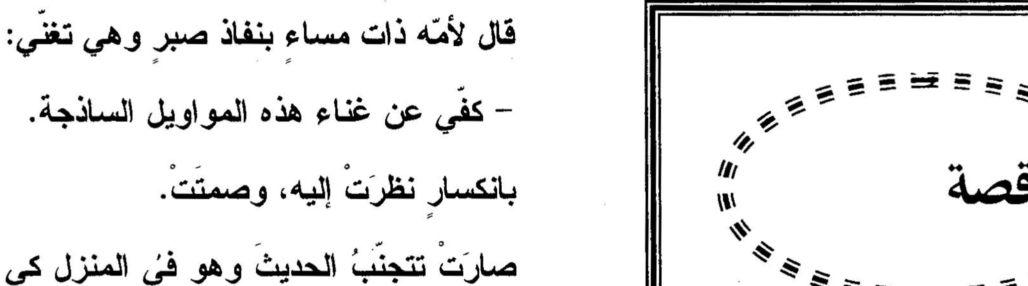
مؤلمٌ أن تبتسم لك الشفاه.. بينما أفكارهم تحفر الأرض تحتك كما المناجذ.. تحاول جاهدة أن تسقطك في هشاشة أفعالها.. وتدّعي إذا ما عاتبتَها عَدَمَ الإبصار.. فما قصدتْ..!

عامل الزمن هو الكفيل بشرخ طبقة الطِّلاء اللماعة التي تغطّي صدأ النفوس وقبح حقيقتها.. عامل الزمن وحده هو الذي يُظهر ما وراء الحجاب.. ولو بعد حين.. فانتظرْه..!

ما عادت الشمس تتلصّص عليَّ من النافذة الشرقية.. ما عادت أشعتها تداعب وجهي.. تتحرَّش بجفنيَّ.. تتغلغل بين خصلات شعري الهانئة.. ما عادت تعبث بكياني المستكين لتمنحه الحركة ما عدت أبغي الحركة.. ما عدت أنتشي بهواء الصباح العليل... لقد وهبتك شمسي.. فمن سيوقظني ويمنحني الحياة..؟!

أرسم حلمي فوق الثَّلج.. تسطع شمس الصيف الباسم.. وتذوب ثلوج الأيام.. وتذوب الأحلام الغضَّة.. بل تمحى عن وجه الأرض.. يندثر حلمي في زمن قد كان وشيك التحقيق.. أرسم حلمي فوق الثلج.. لم أتعلم من ذوبانه إلا أن أحلم ثانيةً..!

البلبل الغرِّيد بات ساهماً حزيناً.. فالأجواء حوله ملوَّثةٌ والحدائق إلى اندثار.. والضمائر راحت تغطّ في سبات عميق صوته توارى نحو الأعماقِ لأنه رفض أن يصدح به لِمَن لا يستحق التَّمتّع بسماع شجْوِه..!



قصة

مواويل

بقلم:
عبير كامل إسماعيل

قال لأمّه ذات مساءٍ بنفاذ صبرٍ وهي تغنّي:

- كفّي عن غناء هذه المواويل الساذجة.

بانكسارٍ نظرَتْ إليه، وصمتَتْ.

صارَتْ تتجنّبُ الحديثَ وهو فيُ المنزل كي لا ترى تلويحةَ رأسه المستخفّة بالكلام السخيفِ المتخلّفِ كما يصفُه، وامتنعَتْ عن الغناء الذي كان ينسيها تعبَ العمل المضني طوال النهار إكراماً لحبيبها الغالي، بل أخذَتْ تكتمُ أنفاسَهَا إذا فوجئَتْ به يطلّ وهي تدندنُ أغنيةً تحبُّها.

كانَ يدخلُ البيتَ ويخرج، يأكلُ، يستحمُّ، ينامُ، حتى كلمات الشكر اعتاد أن يقولَها مرغماً، فهو يكرهُ الكلام الزائد، ويبغض المجاملات.

كثيرةٌ هي المرَّاتُ التي تلذّذ فيها بنكهة الطعام، وبعطر الياسمينة في الدار وبرائحة النظافة والدفء التي تفوح من الأشياء من حوله، لكنّ دقائقَهُ كانَتْ سريعةً، ونظراته خاطفةً لم تجعله ينتبه لليد التي تقف خلف ذلك كلّه.

لم يأخذْ يوماً على محمل الجِـدّ دعاءَهَـا الذي تلتقطُه أذناه وهو راكضٌ إلى مدرسـته، وفيما بعد إلى عمله، ولم تقفْ قطاراتُ عينيـه المستعجلة في محطّاتِ عينيها الحزينتين عندما يسأله أحد الرفاق:

– هل رافقْتَ أمّك إلى المكان الفلانيّ؟!

فيجيب ساخراً:

– أيّها الغبيّ، هل يخرجُ أحدٌ مع أمّه؟! لقد خرجْتُ مع الفتاة.. مرخّماً اسمها، ومستفيضـاً في وصف محاسنها.

كرهَت الحاسـوب، والهـاتف المحمـول، لأنهما دليلا ابنها على سذاجتها واللون الأحمر لأنه دليله على كونها عجـوزاً، وهـو يـردّد متهكماً عندما يراها ترتديه: "بعد الكبرا جبّـة حمرا".

حينما تزوّجَ وأتى بعروسهِ إلـى المنـزل امتلأَت الأركانُ بصداحها، صارَت الآهات تخرجُ ساخنةً من قلبه مع كلّ موّالٍ يتدفَّقُ مـن الفـم الصغير وتفتّقَتْ طرقٌ مبتكرةٌ على كلّ شـيء، هدايا، قُبَلٌ، كلمات رقيقة.

وفيما كان الفرح يورقُ في الزوايـا بـين قلبين متحابّين، كان هناك صوتٌ يتخشّب كـلّ يومٍ في غفلةٍ من الجميع.

أمامَ فراشِ موتها وقفَ ذاهلاً، مندهشـاً، اعتادَ دائماً أن يراها قويةً تعملُ وتعملُ بصمت، ظنّ أنّها لا يمكنُ أنْ تعرفَ التّعبَ، لا يمكنُ أن تضعفَ، ولا يمكنُ أن تتركَهُ وحيداً، لم تَشْـتَكِ يوماً، لم تتأفّفْ، أو أنّها فعلَتْ ذلك خفيـةً دون أن يحسّ بها أحد.

هـزّ كتفيهـا، قبّـل يدَهـا بعد أن امتنعَ عن ذلك طـوال

حياتها ترفّعاً، أدرك وشفتاهُ تلامسـان عـروق يديها الباردتين، كم حرمَ نفسَهُ نعمة دفئهما كلّ تلك السنوات.

كان مستعدّاً أن يبادل عمره بساعة واحدةٍ تعود فيها إلى الحياة ليشكرها كثيراً، ويقبّلهـا طويلاً، ويقول لها كم كانـت جميلـة تجاعيـد التعب المرتسمة على وجهها.

ركع عند قدميها ونام وهو يحلـم بطفـلٍ صغير تهزّ له أمّه السرير وتغنّي له مواويلهـا السّاذجة.



لِهَوىً بأرضِكَ

شعر: عصام شعبان

لِهَـوىً بِأرضِـكَ بِعْـتُ نَفْـسي والمُـنى
يـا مَوطِـنِي وابتَغْـتُ هَمَّـكَ والعنـا

فَمَـتى أراكَ مُنَعَّمـاً ؟! وَتُـرى مَتَـى
يـا مَوْطِـني نَحْـيى وَتَحْـيى مِثْلَـنا !!

هَـذا الثَّـرى قَـدْ كـانَ مَهْدي في الصِّبى
وَيَكُـونُ رَمْسـي حِيْـنَ يُدْرِكُـني الفَنـا

مـا زالَـتِ الأقْـدارُ تَـرْمي سَهْمَهـا
فَتَقُـدُّ ثَوْبَـكَ ثُـمَّ تَرْميـنـي أنـا

وَكَأنَّهـا قَـدْ أَقْسَمَـتْ مُنْـذُ البِـدا
عَهْـداً بِقَتْلِـكَ قَـدْ أَبَرَّتْـهُ هُنـا

لَمّـا رَأَتْـكَ بِناصِـعٍ طَعَنَـتْ بِـهِ
فاحْمَـرَّ مِـنْ وَقْـعِ القَنـا وَتَلَـوَّنا

عـارٌ عَلَيْنـا أنْ نَـراكَ مُضَرَّجـاً
وَنَبِيْـتَ بَعْـدَكَ آمِنِيْـنَ بِأَرْضِنـا

هَـذا التُّـرابُ عَلَيْـهِ لَهْـوُ طُفولَـتي
وَصِبـا شَبابـي ثُـمَّ عِشْقـي والمُـنى

فَـدَاءُ عَيْـنـي أنْ يُـدَنَّـسَ تُرْبَـهُ
وَأَراهُ دامـي القَلْـبِ مَهْـدومَ البِنـا








قَـدْ كِـدْتُ أُنْكِـرُ وَجْهَـهُ لَـولا الحَيـا
لَمَّـا جَفانـي رَوْضُـهُ والمُنْحَنـى
لَيْـسَ الفَقيْـرُ بِمالِـهِ ومَتاعِـهِ
وَمُفَـارِقُ الأَوْطَـانِ لَيْـسَ لَـهُ غِنـى

إنّـيْ سَأَلْـتُ اللّـَهَ يَسْقِـي أَرْضَنـا
وَرْداً وَرَيْحانـاً وَغَيْثـاً مُهْتِنـا
وَيَـرُشَ عِطْـرَ جِنانِـهِ وَعَبيْرِهـا
لِيَفُـوحَ فـي الأَرْضِ الَّـتي خُلِقَـتْ لَنـا
مـا أَطْهَـرَ الأَرْضَ الَّتـي قَـدْ مازَجَـتْ
فيْهـا الدِّمـاءُ تُرابَهـا كَـي نَأْمَـنَ
والطّاهِـرونَ مِـنَ الَّذيْـنَ تَخَضَّبَـتْ
تِلْـكَ الثَّـرى بِدِمائِهِـمْ شُهَـداؤُنـا
والأَنْبَـلونَ مِـنَ الخَلائِـقِ جَمْعِهِـمْ
مَـنْ أَزْهَـرَتْ بِنَجيْعِهِـمْ أَيّامُنـا
فَهُـمُ الغُيُـوثُ إذا تَعَطَّشَـتِ الـذُّرا
تَجْـري دِماهُـمْ في البَيـادي أعيُنـا
يـا سائِلـي عَـنْ مِنْحَـةٍ أَزَلِيَّـةٍ
بُذِلَـتْ لَهـا مُهَـجُ القُلُـوبِ تَيَمُّنـا
وَطَـنٌ يَضُـمُّ تُـرابَـهُ أَشْتـاتَنـا
ضَـمَّ الأُمومَـةِ بَـلْ أَحَـنَّ وأَحْسَـنَ
وَطَـنٌ لأَجْلِـهِ قَـدْ بَنـى أَجْدادُنـا
لِنَعِيْـشَ نَحْـنُ ولا يُفَـرِّقَ شَمْلُنـا
إنْ عاشَـتِ الأَوْطـانُ عِشْنـا أو فَـلا
كُـنّـا ولا كانَـتْ حَيـاةٌ بَعْدَنـا






عاداتنا بين الماضي و الحاضر

بقلم:
معين حمد العماطوري

تعد منظومة العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية، جزءاً لا يتجزأ من تاريخ حضارة شعوب وأمم أفرزت عاداتها عبر تاريخ غني وبتراكم أقوال وأفعال وأفكار، حتى خلصوا إلى عادة اجتماعية تنم بشكل أو بآخر عن البيئة الاجتماعية والثقافية للشعوب ،هذا بالإضافة إلى أنها محصلة من موروث اجتماعي نابع من تراثها التاريخي الذي يقف العقل أمامه مندهشا من النتيجة الجلية التي أصبحت فيما بعد عادة يصعب تغييرها نتيجة المغالاة بها لتصبح ضمن مفهوم السنة المتبعة كما قال ابن الجوزي: "ليس أشد على دعاة الإصلاح من عادة تأصلت على أصحابهم فأصبحت لهم سنة متبعة".

وان مسألة العادات والتقاليد تدخل في إطار الثقافة البيئية والاجتماعية والدينية وفي الطبيعة الزمانية والمكانية أيضا، ومدى ارتباطها إما بمواكبة الزمن أو بتراكم أحداث الزمن، ويختلف حسب نوع النظام الاجتماعي ومراحله الإقطاعي والرأسمالي والاشتراكي الخ..

ونحن اليوم نعيش حالة من التخبط بين الموروث الشعبي القديم للعادات والتقاليد، وبين ما يطرح إلى الشعوب العربية بما يسمى مواكبة الزمن أو إن صح التعبير الاستعمار الجديد بطريقة أكثر حداثة ألا وهي /العولمة / وما تقدمه لنا من تشويه للثقافة العربية وللعادات والتقاليد والأعراف، إذ استطاعت العولمة أن تتدخل ليس فقط في الأفعال بل في الأفكار ووصلت إلى كل منزل وبيت وكل شخص عبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة وكذلك وسائل الاتصالات الأخرى كالانترنيت وغيرها....

في حين هيأت الإنسان لاستقبال ما تطرحه بكل سهولة ورغبة، فمنذ أكثر من عقد من الزمن طرحت العقلانية وبنوا عليها أشياء كثيرة ثم جاءت العلمانية كمصطلح جديد

وأخذت أخرى تنهش كالنار في الهشيم في الثقافة العربية وفنونها ووجدت الأرضية الخصبة لدى الشعوب العربية وتسللت شيئا فشيئا العولمة لتصبح في الأطعمة والأشربة وحتى في الهواء الذي نستنشقه.

ومن تلك العادات التي أصبحت العولمة ناشرة ظلالها عليها هي: عادة الأفراح وهي العادة التي سوف أحاول أن ألقي الضوء ليس على جوانبها كافة وإنما على البعض منها:

كان اختيار العروس قديما يتم من قبل الوالدين دون أن يؤخذ برأي العروسين أو مراعاة كبيرة إلى عوامل الزواج كالتحلي بصفات الأخلاق الحسنة والسمعة الطيبة ثم بقية المواصفات المطلوبة كجمال القامة وحسن الصورة وأصالة النسب وهذه المرحلة أطلق عليها اسم /النقد/ أي تقييم العروسين للجوانب الاجتماعية والأخلاقية والجمالية، وفي حال الموافقة يتم التقدم للإعلان عن الخطوبة بشكل رسمي وتبدأ عمليات الاتفاق على الحقوق الزوجية المستقبلية من مهر معجل أو المؤجل وغيرها من تجهيزات ومستلزمات، ومن العادات الجميلة التي واكبت المعاصرة والحداثة وكانت مواكبتها في موضعها ومكانها الأساسي ملائمة للزمن وللمكان هو إعلان والد العروس بالعطية أي كان سابقا يقول من أجل مصاهرة كريمة بين والد العروس ووالد العريس يقوم والد العريس بدعوة مجموعة من الوجهاء والأقرباء والأصدقاء إلى منزل والد العروس والتي أطلق عليها اسم /الجاهة أو الكدة/ وحالة المعاصرة بين الماضي والحاضر هي إعلان والد العروس كلمات الأعطية والتي يقول فيها: /أجتك البنت بالثوب الأزرق، فهي سوف تنقل من منزل والدها إلى منزل والدها/ أي أنه لا يريد مهراً وهذه العادة لعمري تصلح في كل وقت وأوان وهي تنم عن تاريخ وأصالة حضارة الشعوب العربية الكريمة.

أما في عصرنا الحالي فقد اختلفت الموازين والمقاييس جميعها وتبدلت تقاليد الزواج المرعية والعادات المتبعة فأصبح يتولى عملية الاختيار للعروسين معا دون الرجوع إلى الوالدين أو مشاورتهما مسبقا،إذا يتم اللقاء بينهما على حين غرة أو بدلالة أحد الأصدقاء أو الأقرباء أو ما شابه ذلك، فيلتقيان معا ويتعارفان عن كثب ويدرس كل منهما طبائع الآخر بعد أن يحدث التوافق والانسجام الكلي بين العروسين تدخل العادة آنذاك ليذهب أهل العريس وعدد من وجهاء عائلته وأصدقائه إلى منزل والد العروس وتجرى حوارات الخطوبة الرسمية وهذه العادة أصبحت أيضا مواكبة للحداثة والملائمة للزمان والمكان لاختيار العروسين بعضهما باختيارهما.

وهذه الطريقة الحديثة على الرغم تأييد الناس لها، حتى لا تكون صحيحة لأننا نشهد حالات طلاق كثيرة وقد ذكرت مجلة البانوراما بعددها رقم /٨/ أن الأسرة العربية في خطر ويحدث في كل ساعة /١٠/ حالات طلاق بناء على الإحصاءات العربية الحديثة، خصوصا عند الشباب الأصغر سناً فمنهم من يحب بالآخر قضايا مثل الشكل الجميل الأناقة، الصوت الرخيم، وبعد الزواج يكتشف الزوجان الصغيران أن مقومات الزواج هي مجموعة معطيات متكاملة تحقق زواجاً ناجحاً ومستمراً، من هنا يجب الأخذ برأي الأهل في العروسين.

مراسم الأفراح

بعد القيام بإجراءات العقد وتثبيته بالمحاكم الشرعية أصولا، تبدأ الإجراءات اللازمة لحفلة الزفاف، فيقوم رفاق العريس وأصدقاؤه وأهله وجيرانه ومحبوه بإقامة حفلة غنائية في منزله قبل زفافه بيوم وتسمى تلك /بالتعليلة/ وتستمر الأفراح بعد زفافه بأيام وفي كل ليلة يجتمع الأصدقاء والأهل والشابات

والشباب كل على حدة في المنزل وتعقد حلقات الدبكة والرقص على أنغام بعض الآلات الموسيقية الشعبية كالناي والمجوز وتردد القصائد والأشعار الفنية التي تحمل الاستعراض للأصوات الشعبية والفنون وإظهار الإبداعات الشعرية من خلال التراث الشعبي المحلي لكل منطقة من مناطق بلادنا العربية، ولكن في العقود الأخيرة من القرن الماضي اختلفت الأجواء الأفراح لتأخذ شكلاً مختلفاً عن الماضي نتيجة زحف العولمة والعادات الوافدة بعد أن تسرب الانحطاط إلى بعض العلاقات الاجتماعية والثقافية والفنية إلى مجتمعنا العربي وبدلاً من المحافظة على أصالة واستخدام الحاضر من أجل تكريس عراقته أصبح الماضي الأصيل لنا عادة متخلفة وبات جيل الشباب ينتقد بشدة الماضي، وهنا يجب أن نقف موقفاً متأملاً ونفتش عن السبب والمسبب لها والتي نختصر بعضها في:

- النمو السكاني الكثيف والعلاقات المفتوحة مع العالم الخارجي نتيجة سهولة الاتصال بين المجتمعات والأنظمة الاجتماعية بين العالم .
- الفقر والحاجة والاقتصادية عند البعض وبطر الأغنياء في استخدام العادات الغربية الوافدة.
- الكبت والتطرف في المفاهيم الاجتماعية من خلال الضغط على تطبيقها من قبل بعض رجال الدين والجهات الاختيارية الاجتماعية التقليدية.
- قلة الموارد الطبيعية والاستثمارات في المدن البعيدة والمناطق الريفية النائية.

كل هذه الأسباب وغيرها، جعلت المناخ مناسباً لاستقبال الوافد الذي شوه العادات العربية الأصيلة وبدلا من تطوير العادات والتقاليد العربية نحو الحداثة وجعلها عادات بديلة واعتبارها معاصرة وملائمة للزمان والمكان الحالي، أصبحنا مقلدين لعادات الغرب الذي من شأنه القضاء على تراثنا وهويتنا الثقافية، حتى الفتيات اللواتي كن يظهرن مفاتن جمالهن بالأزياء الشعبية الجميلة أصبحن يظهرن مفاتن الأغراء واستخدام ما هو بعيد عن مفهوم ثقافتنا العربية بكل العوامل الاجتماعية وصولاً إلى الحالة الفنية كالغناء الغربي واستخدام التراث، واللباس غير اللائق وغير ذلك بعد أن كنا نستمع في أفراحنا إلى الأغاني والأهازيج الشعبية التي هي جزء من تاريخ مناطقنا وأصالتنا العربية النابعة من بيئتنا المحلية أصبحنا نسمع ونساهم في انتشار الانحطاط في الفن وفي الأغاني الهابطة وذلك باستخدام الآلات الصاخبة والأصوات البعيدة عن ذوقنا وأصالتنا العربية.

أخيراً نأمل من جيل الشباب مراعاة الجميل والأصيل من ماضينا العريق والحاضر الوثيق من أجل الحفاظ على هوية التراث العربي وصونه من الانحدار والتدهور ،لأن العولمة وما خلفته لنا من أثار سلبية أصبحت تنخر كالسوس في هويتنا الإنسانية والثقافية والاجتماعية وتجاوزت ذلك، وهذا يتطلب أيضا أن نكثف جهودنا لإيجاد صيغة ولغة جديدة للحوار المشترك بين القديم والحديث وتفادى الأمراض الاجتماعية التي نحن نعيشها،لأن أبناءنا وبناتنا هم عنوان الانتماء العربي وعبق الأريج الآدمي في بلادنا العربية وهم المستقبل الذي يجيب أن يكون كما نريد نحن لا كما يريد المتربصون بإفساد مستقبلنا، والأمل كبير في أن تبقى العادات والتقاليد راسخة ومتينة ومستقاة من موروثنا الثقافي كي نستطيع مواجهة العولمة بأسلحة فيها روح المقاومة وثقافتها خاصة أن سورية وعبر التاريخ أثبتت بأنها منبع المقاومة في العالم ومنها سطر التاريخ في صفحاته المجيدة أجمل ملاحم المقاومة منذ ثورة الاستقلال عام ١٩٢٥م حتى حرب تشرين التحرير والنصر وصولا إلى المقاومة اللبنانية الباسلة التي فرضت ثقافة جديدة في تاريخنا المعاصر.



مفهوم التاريخ عند ابن خلدون

بقلم:
مهتدي مصطفى غالب

في هذه العجالة سنلقي بشكل مختصر الضوء على مفهوم التاريخ عند العالم الاجتماعي العربي ابن خلدون، دون العودة لسيرته الحياتية التي لها مكان آخر، وسنعرض لهذا المفهوم من خلال أربع نقاط تؤطر مفهوم التاريخ عند ابن خلدون، وهي:

أولاً- تعريف التاريخ:

لم يتفق الباحثون على تعريف محدد وثابت للتاريخ، قديماً وحديثاً، فالقدماء حددوه بأنه سجل لأعمال الإنسان، ولم يتفقوا على تفاصيل ذلك، ومجمل التعاريف تشمل كل شيء من المُعَاش والاجتماع والسياسة والاقتصاد والدين والفلسفة والفن وغيرها، وتشترك مجمل هذه التعاريف بالعناصر الأولية فيما بينها، وهي الإنسان والماضي والتطور، فالتاريخ: هو سجل لأعمال الإنسان وأفكاره وتطورها، أو هو درس هذه الأعمال والأفكار وتحليلها وتعليلها، أما عند ابن خلدون فنجد بعض التعاريف المأخوذة من مقدمته مثل:

١- التاريخ في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأُول تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف فيها الأندية إذا غصَّها الاحتفال، وتؤدي شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال.

٢- وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير أن يعد في علومها وخليق.

٣- يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهمم، والملوك في دولهم وسياستهم.

٤-التاريخ هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل.

٥-حقيقة التاريخ أنه خبرٌ عن الاجتماع الإنساني.

فالعناصر الأساسية هي: الإنسان، والماضي، والتقلب، وهي مطابقة للعناصر الموجودة عند تعاريف الباحثين من القدماء والمحدثين، بل هو يزيد على ذلك من خلال وجود التفلسف والتعليل واكتشاف أسباب الحوادث.

ثانياً- موضوع التاريخ:

عند ابن خلدون هو الإنسان وأعماله بما تحمله من مبررات ونتائج وغايات.

ثالثاً- أغراض التاريخ:

كان من أغراض التاريخ في البدء إحياء آثار السلف وتمجيد مآثر الأبطال، وضرب المثل وإسداء النصح. أما ما وصل إليه المؤرخون فهو أنه من أهم أغراض درس الماضي هو فهم الحاضر من جميع وجوهه عن طريق درس الماضي من جميع وجوهه، فالتاريخ لا يقتصر على الحروب وتعاقب الأسر، بل يهتم بحياة الشعب واشتغاله بالزراعة والصناعة، ودرس الحياة الدينية والعلمية والفنية، وبهذا يمكن للجيل الحاضر أن يتصور حياة الأجيال السابقة كما كانت تقريباً، ويفهموا كيف آلت الإنسانية إلى حالتها الحاضرة وأسباب ذلك.

ولقد قال ابن خلدون بهذا كله في تحديده الغرض من التاريخ، فهو يقرر أن ضرب الأمثال عنصر مهم في التاريخ ودرسه، ولكنه يضيف إلى ذلك أن التاريخ يوقفنا على (تقلب) الأحوال في الخليقة، ويساعدنا على تعليل أسباب الوقائع، وأنه فوق ذلك يتناول المجتمع الإنساني كله بالإضافة إلى عصر أو جيل أو بلد معين.

ولاشك أن القول بضرب الأمثال له ما سبقه في آثار العرب، فالقرآن الكريم يذكر أخبار السابقين للعبرة، ومؤرخو العرب سلكوا مثل هذا السبيل، وكتب الأدب العربي فيها شيء كثير من الأخبار التي هدفها الأول ضرب المثل، فعلى ضوء ذلك نستطيع أن نقول أن ظاهر التاريخ عند ابن خلدون هو: أخبار (تُطرَف فيها الأندية)، وباطنه: تعليل وفلسفة.

إذاً من أهم أغراض التاريخ عند ابن خلدون هي: التعليل والنظر والتحقيق والعلم بأسباب الوقائع، ولا يتم ذلك، (أي لا ينظر الإنسان في الماضي نظرة تحقيق وفلسفة) دون أن يستفيد من ذلك في حاضره بصرا وخبرة.

فتعليل وتحليل التاريخ والفلسفة في التاريخ عند ابن خلدون هدفه وغايته ومعناه النهائي هو: فهم الماضي على حقيقته والاستفادة من ذلك في الحاضر، فالغاية الأساسية للتاريخ عند ابن خلدون هي فهم الماضي لعيش الحاضر ولبناء المستقبل.

رابعا- هل التاريخ علم أم فن؟؟:

العلم في أيامنا معناه هو المعرفة عن الأشياء المثبتة بالاختبار بحسب قواعد ثابتة، هذا هو العلم الصرف، وهو علوم الطبيعة إجمالاً، وهو غير معناه عند ابن خلدون، رغم وجود أنواع من المعرفة تسمى علوما على سبيل المجاز كقولنا علوم الأدب، علوم الدين... إلخ، فالعلم هنا المقصود فيه الاجتهاد والرأي، وليس الاختبار أو القواعد الثابتة.

أما الفن: فهو إبداع وخلق فيه شيء من اتساق العلوم الطبيعية، ومن حرية العلوم الفكرية.

ورغم أنه من ليس من السهل المقابلة أو المقارنة و لا التطبيق على ما هو مفهومهما عند ابن خلدون، فهو استعمل المصطلحين

(علم) و(فن)... وقبل أن نعرض لمعنى هذين المصطلحين عند ابن خلدون، لا بد لنا من أن نستعرض كلا المفهومين عند العرب السابقين والمعاصرين واللاحقين لابن خلدون:

فقد جاء في تاج العروس: (العلم والمعرفة والشعور كلها بمعنى واحد، وإذا وقع العلم على المفعول كان بمعنى المعرفة).

وجاء في رسائل إخوان الصفا: (العلم هو صور المعلومات في نفس العالم).

وجاء في كشف الظنون: (العلم هو حصول صورة الشيء بالعقل).

وعليه فالعلم في ذاك الزمان كان معناه: المعرفة إطلاقاً، فعلوم الدين وعلوم اللغة وعلوم الفلسفة وعلوم الأدب وعلوم الأخلاق كلها من العلم بهذا المعنى.

وبالتالي نستطيع أن نفهم لماذا اعتبر ابن خلدون العلم (نوعاً من أنواع المعرفة) والفن أعتبره كذلك: فالعمران عنده علم وفن، وكذلك السياسة والخطابة، والفقه علم وكذلك السحر وتعبير الرؤيا،أما بالنسبة للتاريخ فهو استعمل المصطلحين معاً ولكن هل كان يقصد بهما معناً واحداً أنا لا أعتقد ذلك لأن ابن خلدون بالتأكيد يعرف المعنى اللغوي للمفردتين في ذاك الزمان فالعلم هو المعرفة، والفن هو الصنعة، وبالتالي استعماله لهذين المصطلحين بأماكن متعددة هي لإعطاء مفاهيم وأغراض ومعاني للتاريخ تحتوي المعرفة والصنعة، وليس كما يقول بعض المستشرقين والمستغربين أن ابن خلدون كان يخلط بين المصطلحين مستندين إلى استعمالهما في مقدمته، مثل قوله:

أ- إن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم، وهنا يقصد حرفة وصنعة التاريخ وليس معرفة التاريخ وهو بالتأكيد هنا دقيق تمام الدقة باستعمال المصطلح.

ب- التاريخ علم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، وهنا تتجسد الدقة باستعمال المصطلح فللعلم بالكيفيات والأسباب نحتاج للمعرفة التي هي العلم.

ج- المقدمة في فضل علم التاريخ.

د- اعلم أن فن التاريخ.

ه- صار فن التاريخ واهياً.

و- وما استكبر القدماء علم التاريخ إلا لذلك.

ولم نحاول أن نقرأ استعمال ابن خلدون الواعي للمصطلحين كل في مكانه المناسب ليعطي معناه المناسب، لأنه لا مجال هنا يتسع لذلك

وأخيراً لا بد من إشارة إلى أن المقدمة تحتوي قوانين تاريخية اجتماعية تشبه قوانين العلوم الطبيعية، منها على سبيل المثال لا الحصر: قانون السبب والمسبب، وقانون التشابه والتباين، وقانون الاستحالة والإمكان.

واستناداً لما سبق و قلناه مستخرجا من مقولات مقدمة ابن خلدون نستطيع أن نقول: أن ابن خلدون قدم تعريفاً شاملاً جامعاً للتاريخ يقبله حتى علماء حاضرنا، فوضع أهدافا وغايات للتاريخ تشابه بل تتطابق مع غاياتهم وأهدافهم، وابتكر فهماً للعمران والحضارة مستنداً بشكل أساسي على ما ورد في رسائل إخوان الصفا لدرجة أتهمه الباحث العربي الدكتور محمود إسماعيل بسرقة مقدمته كلها من هذه الرسائل ونشر كتاباً هاما في هذا الموضوع، لنا عودة إليه في مقالة أخرى، فالتأثير والتأثر سر تطور الحضارة البشرية لأنها استمرارية وليست تقطعية مكانية وزمانية، وليس مهما أن تتأثر، فهذا شيء من طبيعة تتطور العقل البشري، والمهم أكثر ألا تنكر هذا التأثر، أنت والباحثون في أفكارك وأعمالك، فلا بد وأن تكشف الحقيقة برقع الزيف، لتظهر ساطعة كشمس من خلف غيوم سوداء فتبدو أكثر سطوعاً وجمالاً، وكأننا نراها للمرة الأولى.